

اقتنعت الحبيب

للدكتور وليم سنكل

« صور بيسكو انا لتيقية »

نقله الى العربية وشرحه

أحمد صالح الخالدي



مقدمة

ما هي البسيكو انا لتيقا ؟ (التحليل النفسي)

عنيت قبل مدة بدراسة (علم البسيكو انا لتيقا اي التحليل النفسي) كغافو لا كمحترف ، وافدت منه فيما افدت فهم اغراض الناس الخفية وتنبع بعض معضلاتهم النفسية واسباب تقلب حالاتها . وقد رأيت ان اتل الى العربية كتاب « اقنعة الحب » للعلامة شتيكل النمساوي احد أئمة هذا العلم ومن تلاميذ العالم فرويد مؤسس هذا العلم ومبتكره ، ولو خالفه بعض الاحيان .

فكتبت له استأذنه بذلك ، وقد تكرم فاجاب بالاجاب اكراماً لخاطر الف ليلة وليلة على حد قوله (ذلك الكتاب العجيب الذي لم يعرف العرب قيمته بعد) ووجه انظاري الى ذلك الكنز في دراسة (البسيكو انا لتيقا) كما قال . فرددت عليه شاكرآ عطفه وكرمه .

وعلم التحليل النفسي علم حديث ، يشبه « علم السموم » من بعض نواحيه . ففي قليله شفاء للناس وفي كثيره خطر قد يفضي الى الهلاك ولهذا فكما لا يصح استعماله وتطبيقه إلا باشارة طبيب حاذق مدرب ، كذلك لا يجوز تطبيق هذا العلم واستثمار اسسه عملياً ، إلا لمن حذقه من اهل الاختصاص فيه .

وعلم « التحليل النفسي » هو احدث العلوم جميعها يتناول معالجة

الحالات العصبية المضطربة المعروفة « بالنيوروز (١) » . بل هو تحليل لمحتويات العقل . ويدرس هذا العلم اسباب عوارض المرض وخفاياه الحقيقية . فلا يكتفي يبحث اصول هذه الاعراض بل يبحث في معالجتها في الوقت نفسه ايضاً .

هو إذن دراسة عليية لدوافع الانسان اللاشعورية ، ولرغباته وآماله كما يتبين في الاضطرابات العصبية المختلفة وفي مظاهرها المتنوعة التي تبرز لنا كل يوم في حياة الافراد الاصحاء منهم والمرضى . وقد تبين ان الكثير من اعراض « النيوروز » ، تنتج عن رغبات لا تُرضى تعود اصولها الى ايام الطفولة . فهذه الرغبات لا تؤثر على تكوين الخصال الخلقية فحسب ، بل هي مسئولة عن انواع مختلفة من الامراض العصبية .

منشأ هذا العلم

ان تاريخ تطور (التحليل النفسي) يؤلف فصلاً شيقاً في تاريخ الطب . كان ذلك في سنة ١٨٨١ عندما عالج فرويد ورفيقه بروبر ، وكلاهما من فينا ، شابة كانت تشكو من مرض الهستيريا . وحاولا عبثاً معالجتها بالطرق المألوفة ، إذ ظهر ان المريضة لم تعرفهما إلا بجزء يسير من تاريخ مرضها . ولم يكن ذلك مقصوداً منها ، بل كان مسيئاً عن كبت لا شعوري ، لان حالتها العاطفية التي ألقت جزءاً من

(١) حالة عصبية مضطربة منشؤها في العقل اللاشعوري .

الحقائق التي اخفها كانت تمثل اختبارات مؤلمة لديها . واخيراً تمكنا بطريقة — هي اسلوب التحليل النفسي — ان يكتشفا كثيراً من الاختبارات الخفية ، واثبتا ان هذه الاختبارات كانت منشأ حالة الهستيريا . ومع ان تلك التذكريات كانت قد دفنت في اللاشعوري إلا انها كانت قوى حية فعالة ، ولم يتم الشفاء إلا حين برزت من جديد . لم تكن تلك الاختبارات منسية ولكنها كانت مكبوتة في اللاشعوري ، ولما تغلب على ذلك الكبت ابتدأت المريضة تتحسن . وقد جربا التنويم المغناطيسي في بادىء الامر بقصد بعث التذكريات المنسية بعثاً جديداً ، ولكن وجد في آخر الامر ، ان لا مكان للتنويم المغناطيسي في هذا العلم ، ومن ذلك الوقت استغني عن التنويم . وفي سنة ١٨٩٣ نشر كل من فرويد وابحائهما عن الهستيريا ، واطهرا ان اعراض الهستيريا تنشأ من تذكارات قديمة مبهمة مجهولة ، منسية من قبل المريض . واثبتا ايضاً ان هذا النسيان كان مقصوداً ، كما يعتمد المرء الصحيح ان « ينسى » اختباره المكررة في الحياة .

وفي سنة ١٩٠٠ نشر فرويد كتابه العظيم « تفسير الاحلام » وهكذا شق الطريق للبحث في حقل جديد من المعرفة عن العقل اللاشعوري في الاصحاء والمرضى . وكان « النفاريز اي العصيون (١) » يقصون عليه احلامهم الغريبة وقد وجد ان لكل حلم مغزى شخصي عميق للحالم ، بل كانت نتيجة حياة الفرد العقلية اللاشعورية ، كما هي او بشكل رمزي . وقد اثبت بلا جدال ان كل حلم هو ارضاء للارغبات المكبوتة .

وأبان تحليل الاحلام عن ميكانيكية المخاوف المرضية والهستيريا ،
والاختلاطات والوساوس ، والتفكير الاجباري ، والافكار «الراسخة»
المثبتة ، كما جهز هذا التحليل بخير اداة لازالة تلك الاعراض المرضية
فيما عرف بعد ذلك بالتداوي « البسيكو انا ليتيقي » .

وهكذا فان فكرة فرويد الاساسية تقوم على ان قسماً كبيراً من
الطرق الذهنية الصحيحة ، والشاذة ، انما منشؤها مصادر خفية ، بل
مجهولة من قبل الفرد ذاته . وهكذا تمكن هذا العلم اي التحليل النفسي
من بناء جسر نعبر عليه من التفكير الصحيح الى الحالة العقلية الشاذة .

تطبيق هذا العلم في غير مجال الطب

لقد نفذ هذا العلم الى غير مجال الطب . فقد طبقت مبادئه
بنجاح لا على مساعدة مرضى الاعصاب فحسب ، بل على تفسير
مصادر الفطنة اللاشعورية ، والاتجاه الادبي ، والخرافات ، والمعتقدات ،
والثقائيد ، وهفوات اللسان ، والارقام ، والنسيان عند الاصحاء . وقد
الف فرويد كتابه « المياستم والمحرمات » ونشر دراسة تحليلية (لليناردو
دي فنتشي) وكتب عن علاقة الفطنة بالاشعوري . كما الف نظريته
في الحياة الجنسية ، والمرض النفسي (١) للحياة اليومية .

ويعالج فرويد في نظريته في الحياة الجنسية نمو الغريزة الجنسية
وعلاقتها بالكبت ، من الناحيتين الاجتماعية والفردية ، والدور الذي
يلعبه الكبت في تطور الحالات العقلية الشاذة .

(١) بسيكو باثولوجية الحياة اليومية .

أما بـسيكولوجية الحياة اليومية فيظهر أن الحالات العقلية اللاشعورية وميكانيكياتها هي التي تسبب هفوات اللسان والكتابة (١) ، ونسيان الاسماء والكلمات الخ . وهي مطابقة تماماً للميكانيكية العقلية التي تولد الحالات العصبية المعروفة « بالـبسيكو نيوروز » .

وقد أبان في كتابه « المياسم والمحرمات » أن الارجاع الدفاعية في الفرد والجماعة ، والرمز عن العواطف المكبوتة ، هي في الإنسان الوحشي ، والمثقف سواء . أي أن المحرمات عند الجماعات المتوحشة هي مطابقة تماماً للمحرمات في الجماعة المتمدنة .

وبنى دراسته عن (ليناردو دي فينتشي) على جزء من تذكارات ليناردو أيام الطفولة ، ثم علل هذه التذكارات بأنها أساس عظمة الفنان ، ومنشأ ابتسامته (مونا ليزا (٢)) الساحرة .

أما كتابه عن الفطنة فقد أبان بأن الفطنة والضحك هما أسلوبان يتمكن اللاشعوري بواسطتهما من امتلاك أعظم قسط من اللذة والسرور في اقصر زمن . وأن البنيان البسيكولوجي للنكتة يشبه كثيراً البنيان البسيكولوجي للحلم .

وقد قام غير فرويد طبعاً بأبحاث قيمة في هذا الباب ، فكشفوا نواحي هذا العلم الطبية والثقافية ودرسوا العلاقة بين الخرافة والحلم ، وقابلوا بين ميثولوجية الشعوب وامهات الانتاج الادبي (كهملت)

(١) لهذا لا يصح القول بأن لكل عالم هفوة وعنده أن كل هفوة مقصودة .

(٢) الصورة الفنية الرائعة .

و (ليدي مكبث) الخ. ومن اشهرهم صاحبنا الدكتور شتيكل صاحب هذا الكتاب وغيره .

من يجب ان يمارس هذا العلم ؟

يجب ان يمارس هذا العلم المدربون خصيصاً له . اما غير المدربين فلا يجوز لهم تطبيقه واستعماله كما لا يجوز للجاهل ان يستعمل (الرايوم) مثلاً، اذا جهل طبيعة (اشعة X) او كما لا يجوز لاحد ان يتعاطى الجراحة اذا لم يتقن علم التشريح .

ويختلف الرأي عند الاطباء في شأن هذا العلم وخطورته وهم بين محذ ومستنكر ، اما المعارضون فيجهلون حقاً فهم نظريات هذا العلم واعراضه ، في العادة .

هل للتحليل النفسي مضار ؟

ان بعض الاطباء ممن لم يتقنوا هذا العلم يرتكبون اغلاطاً فاحشة فيه عندما يحاولون تطبيقه . فمن هذه الاخطاء نصائح خاطئة يشيرون بها في بعض الصعوبات الجنسية ، والتشديد اكثر من اللزوم على الجزء المتعلق بالشؤون الجنسية ، ولا ينصح للمريض عند تداويه ان يطالع هذا العلم فان مثل هذه القراءة قد تضربه وتولد فيه حالة عقلية قد تنشئ فيه مقاومة عنيفة .

فالفضل في التحليل النفسي قد يعزى إما الى الاسلوب الخاطئ.

او الى فقدان الانتقال (١) او الى قوة المقاومة (٢) او الى نوع الحادثة التي يحاول الطبيب معالجتها .

هل لهذا العلم قوانين محدودة ؟

نعم ان له قوانين محدودة كقوانين الجاذبية ، مع انه يعالج المظاهر العقلية لا المظاهر الجسدية . فالتحليل النفسي هو علم ذو اصول عملية فنية محدودة . ولا علاقة لهذا العلم بالتاريخ الذي يروي المريض لان المريض يعرف افكاره الشعورية ، كما يتبين من اجوبته على اسئلة الطبيب ، او من سرده صعوباته ومشاكله فجأة . وكثيراً ما يرجع المرضى اسباب مرضهم العصبي لحالات هي اسباب طائشة لا علاقة لها بالته بالدوافع الحقيقية للرض . واكثر هذه الاعتقادات الخاطئة شيوعاً هي تعليلهم مرضهم على انه مسبب عن الاجهاد في العمل . فارجاع هذه المحتويات الشعورية الذهنية الى اصولها اللاشعورية ، ويان العلاقة بين السبب والنتيجة هو العمل الرئيسي لهذا العلم ولكل ظاهرة ذهنية سببها — وعلى هذا ، فالاعراض العصبية ليست من

(١) (الانتقال) هو الشعور بالعطف المعترف به ما بين المريض والطبيب المداوي . ويحدث هذا الانتقال في جميع اساليب المعالجة الطبية عندما يثق المريض بطيبه .

(٢) المقاومة هي عكس الانتقال ، اي ابدال الشعور العدائي ليحل محل شعور العطف . ولهذا المقاومة مصادر مختلفة منشؤها العقل اللاشعوري . وهي نتيجة عراك بين الفكر والغريزة مما هو موجود في « العصب » .

قبيل الامور العارضة او الصدف بل لها علاقة محدودة بطرق ذهنية
مكبونة في العقل اللاشعوري عند المريض . فاذا ما درس المداوي ،
الاحلام ، والاعمال الرمزية ، واذا ما طبق على المريض اختبارات
التداعي (١) ، استطاع حينئذ ان يرجع كل عرض من اعراض المرض
الى مكانه في حياة المريض . وقد تكون هذه الاعراض ذات اصول
في حياة الطفولة لذلك المريض . فـ«علاج المداوي ما يعرف» بانتقالات
المريض العاطفية ، وهرى السبب في «المقاومة» واخيراً يشير على
المريض بأن يستفيد من قواه في طرق اجتماعية تعود عليه بالفائدة ،
اكثر من انصرافه الى تنازعه العاطفي الذي يولد فيه حالة «النيوروز» .
وهذا طبعاً يحتاج الى يد حاذقة لطبيب يتقن نظريات هذا العلم
وتطبيقاته .

وليعلم ان هذا العلم غير مقصور بحثه على المرضى ، بل هو ينفذ
الى دراسة عقول الاصحاء ايضاً ، فقد يساعد في احداث تغيير بعض
الخصال الخلقية الضارة في اشخاص لا يشكون من مرض عصبي .
ومن هنا تأتي بعض فائدة دراسة مثل هذا الكتاب الذي نعرضه الآن
لقراء اللغة العربية .

واكثر ما يطبق هذا العلم على حوادث الهستيريا الحادة ، والنيوروز
الاجباري ، والمتلعثمين في الكلام . وحوادث النيوروستينيا العادية

(١) هي اختبارات تألف من كلمات يجيب عليها المرء فتدرس الاجابة
وعلاقتها بالوثر .

والجنسية، والسادزم (١) والمسوشزم (٢)، والانعكاس الجنسي وبعض الاضطرابات الذهنية والجنون غير الحاد، الخ.

وقد يساعد هذا العلم في تفهم ومعالجة حوادث (الكلبتومانيا) (٣) « الميل الجنوني للسرقة » وفي تعيين الدوافع الاصلية في بعض حوادث المخالفات الخلقية التي يقوم بها الاحداث . إذا كانت هذه الحوادث غير مرفقة بنقص أو ضعف عقلي .

اما من كانوا فوق الخمسين من عمرهم ، او من كان تلغثمهم حاداً ، وغير ذلك من حوادث الجنون المستعصية فلا يفيدهم هذا العلم .

ومن الضروري ان يكون المفحوص في التحليل النفسي صريحاً بخلصاً فلا يخفي شيئاً عن الطبيب . وفي استطاعة الطبيب النفسي ان يدرب المريض لكي يوجه قواه لما يعود عليه بالنفع الجزيل بدلا من استمراره في تنازعه مع مرضه ، او انهاك قواه في الافكار المرضية . ولا يفيد ان يقال للمريض « اعمل هذا الفكر او ذاك من ذهنك » فانه ليس في وسعه ان يهمل اعراضه العصبية ومخاوفه ووساوسه ، كما ان ليس في وسع من يشكو ألماً في جسده ان ينسى ذلك الالم . اصف الى

(١) نسبة الى المركيز دي ساد سنة ١٧٤٠ — ١٨١٤ ، وهي نوع من الانعكاس الجنسي المشفوع بمحبة التعذيب والتلذذ به .

(٢) نسبة الى الروائي النمساوي الشهير وهي حالة من الغريزة المعكوسة يلتذ المرء فيها بان يعذبه غيره من الجنس الآخر .

(٣) ميل لا يقاوم للسرقة من قبل افراد من الجنسين من الاترياء غير المحتاجين ، وهذا الميل نوع من الجنون .

هذا ان السفر وتغير الهواء وما الى ذلك من النصائح المعتادة لا تفيد المريض العصبي « النفروز » ، لان هذا النصح يفترض ان المرض العصبي هو مجموعة من الشكاوي التي لا معنى ، مع انها في الحقيقة مرتبطة ارتباطاً متيناً برغبات المريض ، ونوازعه العقلية ، ولها علاقة شديدة الصلة باختباراته في الحياة . على ان النصح والتفسير يفيدان إذا بنيا على مبادئ التحليل النفسي وقام بها الطبيب النفسي الحاذق . وينصح الذين يشكون من قلق في حياتهم ان يحلوا انفسهم نفسياً عند طبيب مدرب ماهر لمعرفة مصدر ذلك القلق ، ولا شك ان التحليل النفسي يفيد في بيان الحالة الحقيقية التي يشكو منها المريض او المتذمر ، فيستطيع تفهم صعوباته فهماً اتم .

ما قيمة التحليل النفسي في تفسير تنشئة الخلق ؟

ان اللاشعوري هو ذلك الجزء من العقل الذي تنشأ منه ينابيع الخلق ، والذي يكون الخصال الاساسية في خلق الفرد . وكل فرد هو الذي يكون خلقه ومصيره . فالخصال الخلقية ليست موروثه . وخلق الواحد منا ترجع اصوله الى اللاشعوري ، ويتكون إما على اساس بواعثه الاصلية واختباراته في الطفولة ، او على اساس تصعيد (١) هذه ، او ما يقوم به تجاهها من الارجاع وردود الفعل . مثال ذلك

(١) نقل الباعث من حالته الى حالة ارقى ، اي الاستعاضة عن الباعث الاصلي بباعث ارقى وارضاهه . مثل ذلك الولد المتباهي فانه بعد ان ينزع رفقاؤه عنه غروره يتباهى بمدرسه او بوطنه او ببلدته . ويعرف هذا بالتصعيد او التسامي .

شخص حيّ قد يصبح مقاتلاً ، او طفل مدلل قد يصبح شاباً غير صبور . كما ان الطفل الحالم قد يصبح منكمشاً في ميوله ، او طفلاً معتداً بنفسه قد لا يستطيع ان يحب فيما بعد . وللتكوين الخلقي اساس عاطفي اكثر منه ذهني . فالتحليل النفسي قد ينفذ الى اساس بعض الخصال الخلقية ، وهكذا يساعد على نحو تلك الخصال غير المرغوب فيها في الفرد او تغييرها .

هل للوراثة علاقة بالنيوروز (المرض العصبي) ؟

لا . لا علاقة مباشرة بينهما إلا من ناحية شيء من الاستعداد . (فالنيوروز) او المرض العصبي لا يورث او ينقل ، ولكنه ينشأ من نزاع الفرد العاطفي . ولو قلنا ان الحالات العصبية هي وراثية ، لوجب ان يقف البحث العلمي في معالجة الامراض العصبية ، ولكانت جميع طرق معالجتها ، فاشلة وهو ليس صحيحاً . (فالنيوروز) حالة مكتسبة لا تورث . وما ينعتة كثير من ادعياء العلم بالوراثة في الاطفال ليس سوى تقليد منهم للكبار .

لماذا يبدو المرض العصبي كأنه يظهر فجأة في دور خطير عاطفي ؟

لان المريض يكون قد تكيف تكيفاً جديداً ، بل هو نوع ضروري من التكيف الذهني الجديد للملاءمة الحالة الجديدة ، هكذا ينشأ المرض العصبي فجأة ، ليس من جراء صدمة عاطفية او من تعب وجهد فحسب ، ولكن من اصول عاطفية وميول قديمة كان المريض

منذ سنوات يكتبها في عقله اللاشعوري . ومعنى هذا ان (العصي) يكون قد عاد مرة ثانية الى بعض افكاره المشتتة منذ الطفولة . فالتعب والجهد ، والقاق وما اشبه مما يسبق الحالة العصبية ليست هي الاسباب الحقيقية وإنما هي مهيئات . فكل واحد منا معرض لمرض العصي الى درجة ما ، لان صعوبات جديدة تنشأ امامنا كل يوم ، ونحن نحاول ان نقلل من شأنها بأن نتواري في داخلية نفسنا . وفي هذه الحالة الذهنية ، نزال الصعوبات مؤقتاً ، ولكن الحالة ذاتها هي المرض العصي ومعنى هذا ان (النيوروز) هذا يعني بأن المريض يرغب ان في ينهرب من القيام بعمل ما ، او من مجابهة مشكلة جديدة من مشاكل التكيف التي يصادفها (١) .

هل يولد الاجهاد مرضاً عصبياً ؟

إن الاجهاد في العمل لا يمكن ان يولد مرضاً عصبياً ، إلا إذا كانت التربة قد اعدت له قبل ذلك . فالاجهاد إنما يقلل من المقاومة ، فيتمكن المرض من الظهور . فهو إذن لا يولد المرض ، لان اعراضه لا تتناسب مع التعب الجسدي الحقيقي . اضف الى هذا ان التعب الذي يشكو منه مرضى الاعصاب هو تعب كاذب وليس هو بالتعب

(١) اذا حدث نزاع بين الذات الباطنية والذات الظاهرية وتغلبت الاولى نشأت حالة الجنون وانتقل الفرد من عالم الحقيقة الى عالم الوهم والخيال اللذيد ، واذا تغلبت الثانية تمّ التوازن وكان عالم الحقيقة هو المنتصر ، واذا ظلت الحرب بينهما سجالات كان الرجل القلق الذي لا يستقر على حال .

الجسدي الحقيقي . من اجل هذا ، فان مثل هؤلاء المرضى يشعرون بتعب اشد في الصباح ، ويزول هذا التعب تدريجياً كلما تقدم النهار ، وهذا يعلل ايضاً بان مثل اولئك المرضى لا يشفون بالراحة .

ما علاقة التحليل النفسي بالتربية ؟

إن الغرض من التحليل النفسي ان تستثمر قوى الفرد بحيث تُجد لها منفذاً طبيعياً . ولذا ، فلهذا العلم مجال تربيوي ، لانه يحاول ان يستثمر كلها هو حسن في الفرد لاغراض عملية . اضف الى ذلك ان سنوات الطفولة الاولى هي مهمة جداً للحفاظ على الصحة الجيدة والخلق المتين . وفي هذه السنوات كما هو معلوم تكون التربية المبنية على اساس التحليل النفسي ذات اثر فعال عظيم في منع حدوث الامراض العصبية في المستقبل او في تكوين خصال خلقية غير مرغوب فيها . فكثير من العادات السيئة في الصغار كالكذب والسرقة هي اشكال اولى لاعراض مرض (النوروز) في الكبر .

ويجب ان يشجع الاطفال لايجاد منافذ طبيعية مناسبة لرغباتهم ، وإلا انقلبت هذه الرغبات باطناً فاثرت على ذاتهم . فتحول الى احلام النهار ، او الى نوازع عقلية او عاطفية وهي التي تحدث المرض العصبي بالاكثر . ويجب ان يتجنب بالاختصاص ان نرسخ في ذهن الاطفال الشعور بارتكاب الجريمة والذنب والعار والخوف ، والتشدد على القصاص ، او تخويفهم من (البعع) او (الغول) وما الى ذلك .

ما هو مستقبل علم التحليل النفسي ؟

إن مستقبل علم التحليل النفسي يتوقف على تحسين أساليبه وطرقه وعلى تقدم البحث في التحليل النفسي اجمالاً ، وعلى دراسة نتائج الاحصاءات دراسة نيرة ، لمعرفة مدى تأثير العلماء المختلفين في نواحي هذا العلم المتشعبة . واخيراً الاستزادة من تعريف الاطباء العاديين بنظريات هذا العلم وتطبيقاته .

ويقيناً أن هذا العلم ينير سبلنا في دراسة الطرق الحقيقية او في فهم الميكانيكية التي تؤلف حالات الاضطراب العصبي ، مثال ذلك ان المرض العصبي ليس مسيئاً عن الاجهاد في العمل ، بل يرجع سببه الى كبت العواطف وقهرها او عدم ارضاء الغرائز .

ان اسلوب التحليل النفسي للبحث في طرق الذهن اللاشعورية يبشرنا بمستقبل باهر لهذا العلم .

مؤلف الكتاب

ولد الدكتور ويليام شتيكل سنة ١٨٦٨ ويعتبر من أكثر تابعي فرويد انتاجاً ولو خالفه في عمل العقل اللاشعوري . وهو اديب شاعر فوق كونه عالم بسلوكولوجي من الطراز الاول . تشتمل كتبه النفيسة على تطبيق التحليل النفسي على جميع مظاهر التداوي النفسي ، وعلى مجال الفن والادب والعلوم الاجتماعية .

وقد نشر كتابه هذا لأول مرة سنة ١٩١٦ ويعتبر كتابه الاول .

ومن كتبه « الذات المحبوبة » ، و « خبايا النفس » ، و « حالات الشوق العصبي ومداوائها » الخ .

ومن رأيه ان يصبح الطبيب النفسي مريضاً لمريضه ، وان الطبيب هو الذي يداوي « المريض العصبي » ، لا طريقته .

النتيجة

والآن وقد قرأت ايها القارئ الكريم ما لخصناه لك من مبادئ هذا العلم العجيب ومراميه يمكنك ان تقدم على قراءة هذا الكتاب الفريد والاستمتاع بما جاء فيه من الوصف الجذاب ، والتعليل العجيب ، والتفنن الغريب لاماطة اللثام عن (اقنعة الحب) التي تختفي وراء مظاهر تسيطر على سلوك جميع الناس وهم لا يدرون . ولا نحاولن ان تصبح « استاذاً » في هذا العلم بعد قراءة هذا الكتاب او غيره بل العنق العسل ، وتلذذ به ، فان فيه لمتعة وان فيه لفائدة لك ولاولادك ولذويك إن شاء الله .

محمد سامح الخالدي

القدس — جبل المكبر

الفصل الأول

الانسان الباطني

ماذا يعرف الواحد منا عن الآخر ؟ ما اكثر ما نتصور اننا نعرف شخصا معرفة تامة ، فنتخيل باننا نفذنا من الغشاء الخارجي الى اعماق نفسه ، الى ان ترينا غلظتنا حادثة من الحوادث غير المنتظرة ، او عملا فجائيا ، او كلمة قيلت عفواً .

فنجد وقد اخذت منا الدهشة كل مأخذ اننا كنا مخطئين واننا قد سمحنا لانفسنا بان تغش فتأخذ بطواهر الامور دون حقيقتها . هذا وان منظر جماعة فرحة من الناس — يتكلمون ، ويتبادلون خرابا نفوسهم ، ويرددون عبارات التقدير الاخوية والتهنئة كل ذلك في جو ظاهر من السرور الخالص والصدقة — تذكرني بمشهد يختلف جداً . فاني ارى اولئك الناس على حقيقتهم يتكلمون ويحسدون ، وبملا الحقد والعداوة قلوبهم نحو بعضهم . اني ارى « الانسان الباطني » .

ولو سمحت الاحوال بان يعرف الواحد منا شخصا معرفة صميمية حقاً ، لدهشنا للفارق العظيم بل الهوة العميقة بين الانسان الظاهري والانسان الباطني . ويستغرب الواحد منا بان يرى مقدار خصب الحياة الباطنية ، وما عليه الرجل الظاهري من فقر مدقع بحيث لا يدل على ما في باطنه من ثراء عظيم . اضع الى هذا ان اثارنا الفنية ،

ورواياتنا المتعبدة التي تدور دائماً حول المواضيع ذاتها ، ورواياتنا التمثيلية ايضاً ، التي تعالج دائماً ذات النوازع — بمشي مع ذلك الملل الذي يرافق الآلة الموسيقية التي تظل تعزف ذات النغم القديم — جميع هذه تظهر امامنا فقيرة تافهة لا قيمة لها . فالفنانون العظام هم وحدهم الذين يستطيعون ان يمثّلوا جزءاً صغيراً من الانسان الباطني . لا اشك في ان في استطاعتهم ان يدركوا ويعيدوا لنا تصوير الانسان الباطني بكامله ، ولكنهم لا يجروون على ذلك ، إذ انهم ينكمشون من الرؤية الخيفة ، فلا هم ولا نحن يقدرّون على تحمل الصدق او الاعتراف به . ولم يكتب احد بعد تاريخاً صادقاً كاملاً لاي فرد من الافراد ، ولو مثلت لنا مثل هذه الصورة تمثيلاً صريحاً مخلصاً لصرفنا بكل تأكيد نظرنا عنها ونحن نرتجف . وقد تنفس الصعداء فتتملكنا الجرأة فنعترف قائلين : ونحن ايضاً مثل ذلك الرجل . فالشعور بالاثم القاهر الذي يشكو منه العصبي (النفروز) إنما منشؤه جهلنا بمعرفة (الشخص الآخر) . (فالشخص الآخر) يؤلف في نظرنا جزءاً كبيراً من المثل الاعلى الذي يعز الوصول اليه ، والذي لا نجرؤ ان نقارن انفسنا به ، ولم ذلك ؟ ذلك لاننا لا نعرف ذاته الباطنية .

والاختبار يرينا كل حين ان الانسان الباطني يختلف اختلافاً تاماً عن الانسان الظاهري الذي نتخيل بأننا نعرفه معرفة جيدة . جاءني من مدة غير بعيدة رجل يطلب ابداء رأيي في حالات مزاجية مستعصية من حالات الانحطاط العصبي كانت تعتريه . ولما سألته عن مهنته اجاب : ستضحك مني يا حكيم — فانا ممثل هزلي .

ونحن نجد الشيء ذاته في المجانين وغيرهم من الذين يجعلون غيرهم من الناس يضحك . فان هذه الهبة الالهية اي المزاح التي يستطيعون ان ينقلوها الى غيرهم هي مفقودة بتاتا في الانسان الباطني .

واذكر سيدة عرفتُها في المجتمع سنوات عديدة . فقد كانت من النوع البهيج المرح من الناس . وكانت ضحكتها المرحه تطفئ على جميع الاصوات وكان نشاطها البازر يملأ الغرفة جميعها ويبعث فيها الحياة المرحه . وما اعجب ما كانت ترىنا النظرة الى اعماق نفسها . لقد كانت طبيعتها تمتاز بالرزانه ، ولقد كانت تتأقل في حياتها المزججه بالقرب من زوجها الذي لم تكن تحبه . واي فائدة في انها كانت تعزه وتحترمه وانه كان رجلا طيبا وانه كان يحقق لها كل رغباتها ؟ فلم تكن لتحبه بل لم يكن ذلك في استطاعتها ، بل كان الامر على العكس من ذلك فقد كانت هناك قوة غامضة تبعدُها عنه ، بل كانت كل لمسة من لمساته الناعمة تحدث فيها قشعريرة جسدية تكاد تكون نفورا واشمئزازاً ، ولم هذا ؟ لم تكن لتستطيع تعليل ذلك . لقد كان ذلك سر نفسها العظيم — سرّاً مظلماً عجيباً ، غير مفهوم ، شأن جميع العناصر التي تشمل الحب . ونحن نتصور احياناً اننا نعرف السبب الذي من اجله نحب . فنأخذ نبرر غرائزنا تبريراً معقولاً ، ونلبس شهواتنا الغامضة ارادة منطقية ؟ ولكن ماذا تخفي هذه الملابس ؟ وما هو لغز العطف والتنافر .

ان المرأة التي تكلمت عنها لم تكن تعرف لماذا لم تكن تحب زوجها . فلقد كانت في الظاهر تلعب دور الزوجة المخلصة المحبة . نعم

كانت تلعب هذا الدور ؟ كلا — بل كانت زوجة مخلصة محبة . ولم تكن لتتصور ممرضة أكثر اخلاصاً من هذه المرأة التي انجحت جميع رغباتها وجهودها الى تحرير نفسها من رق ذلك الرجل . ولقد كانت السنة تمر بعد الاخرى وهي تلهو في احلام النهار الواهية . ولقد كانت في الظاهر عنوان السرور بل خلاصته ولكن لما كانت دموعها تنهم دائماً باطنياً استمر سيلانها مدة الى ان فاضت في النهاية فاغرقت سرورها ، وقررت ان تنهي حياتها بيدها ، ولم يكن لها اي دافع في الظاهر — وقال الناس : انها ساعة جنون !

لقد كانت هذه فاجعة صغيرة من فواجع ومآسي هي كعدد رمال البحر تحدث كل يوم . ولذا تعروني شبه قشعريرة عندما اشاهد جماعة من الناس يرغبون في ، تضييف ، بعضهم بعضاً وهم يحاولون اقتناص . مسرات ، الحياة ، سواء على المسرح ، او في الحفلات الغنائية ، او الحفلات الراقصة . يا حبذا لو تمكن الواحد منا من ان ينظر الى اعماق نفوسهم ، إذن لظهر للعيان مقدار الحزن والاسى ، والقلق واليأس والشهوة الخشنة الوحشية . والاثم المحجب والبواعث الوحشية المقهورة بشيء من الصعوبة . كل فرد منا يجتاز الحياة ومعه الوحش الضاري المقيد ، يقطع السلاسل او يهز قضبان القفص . وفي الحق ان الناس لا يحملون دون ما سبب بان الحيوانات المفترسة كالاسود والنمور والكلاب المتوحشة ، والخيول الهاربة تقتني اثارهم . فالأقدمون تمكنوا من تفسير هذه الاحلام بانها شهوات تلازمنا ، او بواعث مكبوتة نخشاها

ولكنني لا ارجب في ان اتكلم عن الحيوان في الانسان إذ يمشي جنباً الى جنب مع هذه الشهوات الجامحة فينا ، اشرف وارق البواعث الانسانية . ولقد قيل ان القلب هو مقبرة الرغبات والآمال المدفونة . فالتشبيه خاطئ ، ذلك لان الرغبات والآمال ليست ميتة ، فلا تستسلم والحزن ، والثورة والسخط ، جميع هذه حيل بينها وبين العالم الخارجي بقضبان حديدية وقد لا تظهر في وضوح النهار . والانسان الظاهري لا يرى شيئاً من رغباته المدفونة ، إذ يظهر انه مسرور بمتن بل راض من نصيبه ، فهو ينهك نفسه في اعماله كل يوم . ولكن الانسان الباطني لا يستطيع ان ينسى افكاره الجميلة في عهد الطفولة ، فهو لا يزال يحاول الوصول الى الاعلى والافضل والاجمل ، وهو يندب ما في الحياة من فراغ ويشكو مما يصادف كل يوم من خيبة الامل والفشل . فهو في اعماق نفسه يحاول في حيرة وقلق حل مشكلات الانسانية المظلمة ، فلا يرى امناً او سلاماً ، من اين ؟ والى اين المصير ؟ ومن ثم لماذا ؟

وقد يصبح الانسان الباطني قويا بحيث يتغلب على الظاهري . هذا الغلب نسميه المرض العصبي ، وتأخذ نشعر مع ذلك التعس الذي اطفئت في وجهه انوار العالم . من يدري لعل ذلك الذي ندعوه بالجنون هو اكثر سروراً منا نحن العقلاء . ذلك ان المجنون يعيش مع ذاته — الباطنية فقد تهدمت الجسور التي تربطه بالعالم الخارجي ، ولكن حنينه وشوقه وامكانياته . ورغباته ومبتغاه قد اصبحت في نظره حقائق . وماذا يهم لو ان هذه الحقائق ليست قيمة إلا في نظره ؟ فان حقه اكثر معنى لديه بل يقدم له من اللذة والسرور اكثر مما يقدم لنا فهمنا

نحو العقل . بين هذين الطرفين المتناهيين ، الوف من التحولات والانتقالات . فالإنسان الباطني يثور على الإنسان الظاهري ويتبدى . النزاع الابدئي بين الاصوات الباطنية ، ومطالب الحقيقة ، فينتج عن ذلك ما نسميه خطأ بالامراض العصبية ، . وليس لهذه الامراض صلة بالاعصاب بقدر ما للساعي الذي ينقل اليك الاخبار المحزنة صلة بها . ان من المنطق الانساني المتأصل ان تربط الامور بابرز الاعراض ظهوراً ، وبما ان الالام العقلية تظهر نفسها في اضطرابات في الاعصاب ، تصبح النتيجة الجلية كما يأتي : ان اعصابي مريضة ، ويستطيع الاطباء ان يشاهدوا مراراً مظهراً غريباً . وهناك بعض الناس من الذين لا يستطيعون ان يصفحوا عن الطبيب الذي يشخص مرضاً غير قابل للشفاء تشخيصاً مضبوطاً . اذكر عدداً من الحوادث امتنعت فيها بعض الاسر من دعوة الاطباء لانهم شخصوا واكتشفوا امراضاً خفيت حقيقتها عن زملائهم . ان شعور الثورة ضد القضاء والقدر المحتوم يحول بسهولة لمن يحمل اخبار السوء . ولذا فان الاعصاب البريئة العديمة الضرر تجعل مسؤولية عن فقدان التناسق بين الانسان الباطني والانسان الظاهري ، والذي يحدث بواسطته سلسلة لا تنتهي من التنازع .

قد تقرأ في جريدة ما ، كل يوم ان السيد (ب) او السيدة (ج) قد انتحرا في فترة جنون موقته ، اذ لم يكن هناك دافع ظاهري يفسر لنا هجرهم هذه الحياة هجراً ارادياً . كأن في امكاننا ان نعرف اي رجل معرفة تامة ، ان من المؤسف ولكنه حقيقي ، ان الاب لا يعرف ابنه

وان الزوج عادة لا يعرف زوجته ، وان الزوجة لا تعرف زوجها
واكثرنا يجتاز هذه الحياة ونحن مجهولون . فنحن غرباء عن بعضنا
واقربهم مودة الينا عادة ، هم ابعدهم عنا . واكثر الامور اسفا هو
جهلنا لانفسنا . ففي توالي السنين في هذا السير المتدفع الى الامام ، في
الارتباك والمسرات يفقد الانسان الباطني ، ويضعف صوته شيئا
فشيئا ، وتبدأ الصور التي يبرزها امامنا اكثر غموضا . وينهك
الحيوان — الوحشي نفسه ، وتفقد الرغبة قوتها ، فتصبح كالطير الذي
قص جناحاه ، ويكون الانسان الباطني قد مثل دوره فينتهي بان
يعيش هو ذلك الدور . ويعرف هذا بـ « حس الالكساب » .

ألم يخطر ببالك ان الانسان يخاف من الانفراد ؟ وان غريزة
القطيع تدفعه ليقرب من غيره من الناس ، حتى من الذين لا يعاؤون
به ؟ فتراه يحاول ان يمت حواسه باستعمال كلمات غريبة ، والاتصال
بأناس غرباء ، والشعور بانفعالات غريبة ، بل يلجأ الى صوت الموسيقى
التي ينصت اليها وهو في الحقيقة لا يسمعها . بل يلعب الورق ، او يلهو
بالالعب الرياضية ، او بالكتب او بالمجلات ؟ انه يعرف معرفة جيدة
انه انما يفعل ذلك لكي يهرب من نفسه . إذ عندما يكون وحيداً ،
يتقدم الانسان الباطني ويبتدىء يهمس بغرابة ، فيذكره بالايام السالفة
التي لم يكن لها ظل من الحقيقة ، وبالرغبات التي قهرت والتي لا تزال
فعالة والتي نحن الى ان نرضى وتشبع . هو إذن لا يريد ان يرى
الانسان الباطني ، فهو يغمض عينيه وقد اخذ منه الخوف كل مأخذ

كما فعل (دوريان جراي) (١) عندما شاهد صورته بعد سنوات عديدة .
ومع هذا فعلى هذه النظرة الباطنية يتوقف خلاص الجنس
البشري بل مستقبله . إذ قبل ان نحكم ماذا يمكن ان نصير يوماً ما ،
يجب ان نعرف بآدى الامر ما نحن عليه ، ولن يطول الزمن بالانسان
الباطني ليطلب منا حقه — حقه في ان يسمع ويعترف به . ونحن
اشد حاجة الى الحرية (الباطنية) منا الى الحرية (الظاهرية) . ولا
بد من فتح ابواب السجن . فالكره ، والشاىة ، والحسد ، والفسق ،
وجميع ما في (علبة باندورا) (٢) (Pandora's box) من المساوىء
يجب ان تظهر ، حتى يستطيع الرجل الشريف ان يحاربها ويقهرها .
هكذا فقط تتمكن الانسانية من الارتقاء . يجب ان يتحرر الانسان
الباطني وان يؤخذ بيده الى الذرى الواضحة للثل العليا .



(١) دوريان جراي بطل رواية للكاتب الشهير اوسكار وايلد . كان
مثال الاخلاق الفاضلة ، وكان جميلاً جداً ولكنه اخذ ينحط اخلاقياً فصار يشعر
بان رسمه اخذ بتغير فلم يعد يستطيع ان يتبين رسمه ، اذ صار يرى فيه انسانيته
الباطني .

(٢) هي هدية زفس الى باندورا اول امرأة فانية ، احتوت العلبة على
جميع الشرور الانسانية وقد فتحها ابيميثيوس خطأ وبلا ترو ، فطارت جميع
الشرور ، وفي رواية اخرى ان العلبة كانت تحقوي على جميع البركات الالهية
ولما فتحت انتشرت هذه البركات وضلت ، ما عدا الامل ، الذي بقي في اسفل
العلبة . والقصة من الاساطير الاغريقية .

الفصل الثاني

العمى الارادي

نشاهد في المصابين بالهستيريا (١) مظهراً غريباً ندعوه بـ « تضيق النظر » . فاذا طلبنا من شخص سليم ان ينظر الى نقطة معينة ثم احضرنا قرصاً صغيراً ابيض وقربناه اليه من جميع الجهات حصلنا على مجال بصري ندعوه « بالمجال المحيطي » ، فيرى بعضهم القرص الابيض من مسافة بعيدة في حين لا يراه الآخرون الا من قريب .

فالتأرجح (المحيطية) المختلفة التي يحصل عليها الاشخاص المختلفون لا تتوقف على قصر البصر او مده عندهم ، لان هذه النقائص يمكن تلافيها باستعمال النظارات . والتأرجح التي نحصل عليها تختلف ايضا باختلاف اللون المستعمل . فقد يكون المجال لبعض الالوان اوسع من غيرها . ومن الغريب ان المجال البصري للمصابين بالهستيريا يكون عادة محدوداً جداً .

(١) الهستيريا حالة تطرأ على الشابات بالاكثر وتنشأ من تكرار المؤثرات والمهيجات وعدم وجود او قمدان الافرازات او المنافذ للغزيرة الجنسية . اما النورستينيا فتنشأ من عدم تناسب بين الافرازات والمؤثرات ، مثال ذلك العادات السرية ، التي تسببها النورستينيا .

على ان تفسير هذا المظهر الغريب جاء متأخراً . فقد كان « جانت » (Janet) اول من اشار الى ان تحديد المجال البصري هذا . هو التعبير الرمزي لتضييق أفق التفكير الذهني . فان المريض العصبي (النفروز) تملكه (فكرة محدودة راسخة ثابتة) وهي وان لم تكن وهماً إلا انها تملك جميع رغباته العاطفية وتستولي عليها . وقد وصف العالم (ورنيك) (Wernicke) هذه وصفاً أليق « بالفكرة المبالغ فيها » وهي التي يوصف فيها العصبي (النفروز) بأنه ينظر الى نفسه باستمرار في مرآة ذاته . ولكن مجال بصره يتصل بذاته في بعض نقاط فقط .

إن هذا التفسير البديع لا يمثل الحقيقة بأجمعها . فما لا شك فيه ان العصبي (النفروز) لا ينجح في اتخاذ نظرة واسعة الى العالم . فهو يزيد ويبالغ في قيمة شيء من الاشياء في حين يهمل شيئاً آخر وينتج من هذا ان يصبح مجال بصره محدوداً جداً . وليس هذا لانه يستمر في النظر دائماً في نقطة معينة في ذاته بالنسبة الى ما يحيط به في بيئته بل لان هناك ايضا بعض المدركات ، والحقائق ، والنتائج التي لا يرغب في رؤيتها ، والتعرف اليها . فهذه الوضعة الاجبارية التي يضطر معها الى النظر في ناحية خاصة والتي يقي بصره مثبتاً فيها ، لا تنتج عن الرغبة في الرؤية بقدر ما تنتج عن (العمى الارادي) .

وليس هذا بالمظهر الذي يدعوه فرويد (بالكبت) ، لان فرويد يفترض ان هذا الكبت يبعد الافكار المكبرة الى اللا شعوري . ولكن هذا العمى الاختياري لا علاقة له البتة باللا شعوري . فاللا شعوري ، يستلزم (عدم قدرة على الرؤية) وهذا هو المعنى

الحقيقي (للكتب) . فالعمى الارادي مهما قلنا فيه ، لا يمكن وصفه
 باكثر من انه (شعوري بعض الشيء) .

وقبل ان ابحت بحثا كاملا في المظاهر المختلفة للعمى الارادي .
 احب ان اقدم مثلا بسيطا لهذا المظهر العجيب ، ومن الغريب ان
 علم النفس قد اهمله حتى الآن . ذلك ان امرأة شابة كانت تشكو
 اعراضا عصبية مختلفة منذ اشهر معدودة . وقد جاءت الي وحيثني
 والدموع تنهمر من عينيها قائلة : انني سعيدة جداً . ان زوجي رجل
 طيب ، . وسالت عبراتها على خديها ، وتضاعفت نوبة الفرح التي
 هزتها ، وانفجرت في النهاية في نوبة من البكاء دامت بضع دقائق .
 وحاول زوجها الشاب ان يسكن من غضبها بقبلاته الناعمة ، ولكنه
 لم يفلح . وامسكت يديه وقد تشنجت وتوسلت اليه بأن لا يتركها
 ورمت بنفسها بين ذراعيه ، ولم تجد إلا هناك ، بالتدريج ، اطمئنانها
 المرغوب .

لا يسع اي عالم بسلوك حقيقي ان يعتبر تلك الدموع دموع
 فرح نقية خالصة . فالذي يكون مسروراً لا يكون ابداً عصياً .
 وليس في مقدوري ان اظل اكرر هذا القول مراراً . ذلك لان
 الاعتراف بمصائب المرء في جميع نواحي الحياة يتطلب شجاعة فائقة .
 فهناك واجبات للسرور كما للحنو ، والاعتراف بالجميل والانتقام الخ .
 فالعصبي (النفروز) هو عادة ذلك الفرد الذي يرفض ان يرى
 مصائبه ولذا فهو يجرّب محاولا ان يعيدها ويرجعها الى بعض الآلام
 الجسدية . فتراه يقول لنفسه . آه ليتني لم اكن ذلك النوام الردي ،

او « آه ليتني لم اكن ازعج بسوء الهضم هذا المتعب » — « اذن
لكنك اسعد مخلوقات الله ، . وتكرّر مثل هذه الاقوال باشكال
مختلفة لا نهاية لها .

والشابة التي كنا نتكلم عنها كانت من هذا النوع . فما هو الشيء
الذي ترفض ان تراه ؟ ذلك هو انها غير مسرورة ، ذلك هو انها قد
اخطأت في اختيار زوج لها ، وقد اصرّت على اختيارها ، بما عرف
من العناد الكلي الذي تتصف به البنات المصابات بالهستيريا ، وكان
ذلك طبعاً مخالفاً لارادة والدها والدتها ان يثنيها عن عزمها على الزواج ، ولم
يتركها حجة عقلية او نفلية إلا اورداها ، ولكنها ظلت جامدة ، بل
صرّحت بانها تفضل الموت على عدم زواجها بمن تحب .

وماذا يستطيع الوالدان المحبان ان يفعلوا في مثل هذه الحالة ؟
واخيراً وبقلوب حاسرة اقرّوا العقد . ومرّت بضعة اشهرُ سرّت بها
الزوجة الصبية ، ولكنها ما لبثت ان اصبحت مغمومة ، ذليلة حزينة ،
مشغولة البال ، فاستسلمت الى البكاء والتحيب — وصفوة القول انها
اصبحت « عصبية » .

نرى الآن اي دافع قوي كان يحدو بهذه المرأة الشابة لان تتشدد
في القول بانها مسرورة في زواجها . فان الذي كانت ترفض رؤيته هو
ان والدها كانا على حق في امر زواجها ، على حين انها اخطأت في
اختيارها ، وان سعادتها المنتظرة لم تتحقق .

على ان عنادها وكبرياءها منعها من رؤية ذلك ، ولو رأت ذلك

لكان معناه استسلامها لآبائها، واصدقاتها، وذوها، وإذن لكان معنى ذلك استرداد كل شيء بل ان تجعل من نفسها موضع هزة وسخرية، وإذن تكون بخست وحقرت ذلك الذي ربحته بعد نزاع مرير عنيف. ولم تكن عبراتها، عبرات سرور وفرح عظيم — اي نتيجة عاطفة فياضة، وهي في اطرافها القصوى تندمج في العاطفة المعاكسة، كلا، فقد كانت تلك الدموع دموع كدر وحزن اعتبرتها هي دليل فرح فياض، لانها لم تكن ترغب في رؤية كدرها. ها نحن نرى لماذا تألمت من جميع انواع الاضطرابات في بصرها، مما يطلق عليه الكحلون اسم الاضطرابات «العصية». فجميع الاشياء اخذت تظهر فجأة وكأنها تصغر وتزداد غموضاً، فتلاشى كما لو اكتسحتها روح شريرة مسحورة. هكذا اضمحل حبها، وآمالها، بل كل شيء كان يرمز الى نور الحياة في نظرها تلاشى، فأصبحت حياتها على وتيرة واحدة مملة.

ان المجال البصري المحدود لهذه المريضة دلّ على انها لا ترغب في رؤية العالم الواسع وما فيه من المسرات المنتظرة. فقد شخصت بصرها نحو سرورها الزائل كأنها ظنت بأنها ستحتفظ بذلك السرور كلما ادامت تحديقها فيه.

ومن المؤسف ان هذه السيدة ليست الممثلة الوحيدة التي تمثل لنفسها مشهد سرورها العظيم. فهناك اناس لا يعدون ممن يرجع كل اضطرابهم العصبي الى العنى الارادي، والذين يسعون سعياً حثيثاً الى ايجاد عامل مشنت لكي يتجنبوا الاعتراف بحقيقة خاصة. ولما

كان من المستحيل ان اذكر هنا لضيق البحث جميع الاعراض لتعددتها، او ان الخصة في بعض الصور، لذا سأختار بعض الانواع المفردة التي تصف هذا المظهر العجيب .

هناك طريق آخر يستطيع المرء بواسطته ان يتجنب نقطة بحث خاصة، عدا عن تضيق الافق العقلي الذي وصفناه فيما سبق . فان العكس ايضاً، اي توسيع الافق يمكننا من اهمال ما يقع اقرب ما يكون الينا . اعرف انساناً يظهر رغبته واهتمامهم بكل شئ . ونهارهم قصير جداً فلا يتحمل جميع رغباتهم . وحياتهم تشبه دوامة الماء التي لا تعرف الوقف . فهم يأخذون على عاتقهم القيام بأي نوع من العمل مما يسليهم ويشتت انتباههم ، ويمشون مع مسراتهم وهوهم ويملاؤن النهار بعشرة اضعاف ما يستطيع النهار ان يتسع له . ويخشون ان تمر بهم ساعة فراغ — ساعة تترك خالية للفكر ، فكأن الضجر لا يحتمل . وفي الحقيقة ، انهم انما يخشون فقط ان يفكروا في ما لا يرغبون التفكير فيه، اذا لم يكن لديهم فيض من عوامل التشبث . ينتمي الى هذا النوع من العصيين (النفايز) الموظفون الذين يفيضون نشاطاً فيأخذون معهم الى البيت ملفات (١) اعمالهم ، والذين يرهقون انفسهم بتحمل جميع انواع الاعمال الاضافية . ومما يشبه هذا النوع الذين يقرأون وهم يمشون ، او الذين يرون في القطار او في الحمام وهم يحملون كتاباً في يدهم ، بل نجد ما يشبه هؤلاء المتعصبين بين الجماعين، وفي عالم الموسيقى وفي عالم الادب، وفي الذين

يرتادون المقاهي، والمقامين، والسكيرين، فجميع هؤلاء قد - اقول
بالاخصر قد - يكونون هارين من الحقيقة .

لهذا نجد الحوار العصبي الجدّي انما يحدث عادة بعد مرض
او اجازة ، وهذا هو السبب ايضا في ان ايام الاحد هي ايام عذاب لا
راحة ، عند العصبيين (التفاريز) . ان مغزى المرض واعتباره سببا
للحوار العصبي لم يقدر تمام التقدير الى الآن . ما اكثر ما نلوم صدمة
العملية، او خور القوة، او تسما من جراء عدوى، في حين ان السبب
الحقيقي هو الراحة التي فرضت علينا فرضاً . هذا رجل امر ان
يلزم فراشه مدة اربعة اسابيع لم يتمكن قبل ذلك ان يفكر متأملاً في
نفسه وطرز حياته ، وقد منعه الطبيب من ان يقرأ ، او ان يستقبل
الزوار لانه حُظِرَ عليه ان يتكلم كثيراً . وهكذا نرى ان افكاره التي
كانت حتى الآن مشغولة بشئ ما ، اصبحت مع شئ من التثيب تهتم
بالناحية الروحية من حياته ، فتبدأ بعض المدركات تسرب الى شعوره
بما نجح في الماضي من تنحيها ، ويبتدى متأملاً في الذي آمله من
الحياة ، وماذا منحته هذه الحياة فعلاً ، ويبتدى برى فشل آماله المريع .
وهو امر يجب ان يجابهه كل رجل شريف امام محكمة شعوره . لقد
كان حتى الآن ضريباً ، وها هو ينهض من فراشه وقد عاد اليه بصره
فاما ان يحارب بشجاعة كل مناله المربر ، او ينهض وقد تغير وتعافى
جسداً وذهناً ، او ينهزم ويلتجئ الى مرض نسميه بال « نيوروز » ،
وليس لهذا المرض اية علاقة بالعصب كما يظن عادة .

فهو يحتاج الى تحويل جديد في اتجاهاته لكي يحفظ لنفسه

(عماء الارادي) . ومن اجل هذه الغاية ، يستفيد من افكاره الجنونية ، المختلفة ، ومن ذهوله ، ووساوسه ومن ألمه ، حتى من احزانه الجديدة — وهو يعرف معرفة جيدة كيف يثير هذه جميعها اذا احتاج الى ذلك ؟

ما هي هذه الاتجاهات ؟ يستطيع المرء ان يملأ مجلدات ، ولا يكون قد وُتّي هذا البحث حقه . فاحدهم يدوّن عدد النوافذ التي يراها طول نهاره ، ثم يجمعها آخر النهار ، ثم يتصور بأنه اخطأ في حسابه ، فيأخذ في عدّها المرة بعد الاخرى الى ان يسقط نائماً من الاعياء والتعب . ويقوم غيره فيقارع طيف مرض معدٍ ، يتولاه النهار بطوله هذا الخوف المبالغ فيه — والذي يختفي وراه مرض آخر لا يرغب هو في رؤيته . اما شخص ثالث فيغمس في مسألة من مسائل اليوم الحيوية ، اي في (حركة من الحركات) فيصلح ، ويشاغب ويتداخل ، ويقاقل ، ويتألم ، بل يصبح شهيداً ، بطلا او متعصبا ، — بل يحن فعلاً — في اعتناق اي قضية من قضايا العالم . اما رابع فيخترع طقساً من الطقوس عند قيامه من الفراش او ذهابه اليه او اثناء النهار — كتلة سخيقة من الانحرافات الشاذة ، يشعر بأثسا ، من جراء هذه المحنة في الظاهر ، فيقاتلها ، فيخضع ، او يخضع او ينتصر او يشعر ذليلاً ومع هذا فلا يزال في ذلك تشبّث ، لانه لا يرى ما لا يرغب في رؤيته .

ولقد ظهرت الحرب لكثيرين من مثل اولئك الذين يغشّون انفسهم بركة ورحمة ولكن الامر ما لبث ان اصبح لعنة . لقد وجدوا

في الحرب وسيلة لان ينحرفوا انحرافاً كبيراً عن ذائهم ، او عمالاً
 ترغب الذات في رؤيته . كان هؤلاء الذين كانوا يجدون انفسهم
 مضطرين الى قراءة « كل » ، الجرائد — ذلك لان التقارير الموضوعية
 لجرائدهم لم تكن تكني — بل كانوا يشتركون جميع « الملاحق » فكانوا
 يلتهمون بتعصب جميع الاشاعات المثيرة للعواطف ؛ وكانوا أول من
 ينشرها . لقد كانت الحرب الكبرى في نظرهم وسيلة لغاية ؛ بل كانت
 احساساً بل اتجاهات من الاتجاهات ؛ فلم تكن في نظرهم مرضاً عصبياً
 خطيراً ؛ او جنونا اضل الانسانية جمعاء ، او نتيجة مريضة لانقلابات
 لم يمكن تجنبها ؛ او زوبعة هائجة تهدم كل ما كان فاسداً منحوراً .

ومن جهة اخرى نجد اناسا سلبتهم الحرب عملهم الاعتيادي فاصبحوا
 مرضى لانهم وجدوا وقتاً للتأمل والتفكير في حالهم ؛ وهكذا حققوا
 ما كانوا حتى الآن قد اهملوه ؛ فاذا به الآن يغزو شعورهم . فهم
 يطرحون اللوم على المثيرات التي سببتها الحرب ويستطيعون بالاجمال
 ان يبينوا سببا خاصا لمرضهم . ولكن تحليلا دقيقا في حالتهم يبين ان
 قضيتهم إنما هي قضية « عمى مقصود » صمموا هم بأنفسهم على
 الاحتفاظ به . أين التطبيق العملي لهذه الحقائق ؟ سؤال يسأله القارىء
 العملي : كيف استطيع ان اصون نفسي ضد العمى الاداري ؟ كيف
 اتجنب ان امثل لنفسي ؟ اعتقد انه يجب ان نرتب من الطفولة على ان
 نكون صادقين مع انفسنا . يجب ان لا نوضع امامنا مثل عليا يستحيل
 علينا الوصول اليها ؛ حينئذ نستطيع ان نكف انفسنا بسهولة على
 ضعفنا الانساني . ومع اننا نعلم دائما ان نتكلم الصدق مع الآخرين ؛

وينتظر منا ان نحني رؤوسنا احتراماً للصدق ، إلا اننا نشاهد عاجلاً ؛ بان الظروف تضطربنا عادة إلى ان نكذب فنرى ان الناس ليسوا صالحين جداً ولا هم بالدينيين جداً كما يصوّرون لنا ؛ وان الكذب هو ضرورة من ضروريات نظامنا الاجتماعي . ولذا نجد ان من السهولة بمكان ان نكذب على انفسنا . ولو اظهروا لنا او ارونا صورة حقيقة صادقة للعالم ؛ لما كان الكذب ضرورياً . ولو علمنا خداع الحياة ؛ واكاذيبها الكبار والصغار ، والمزاعم ، والروايات الهزلية ؛ وألأعيب الشرفاء ؛ وشرف النصابين ، ويا حبذا لو اعطينا الفرصة لان ندخل في المتناقضات المشوشة ، ولان نشعر بان ضعفنا هو امكان لقوتنا في المستقبل — اقول لو فرضنا كل هذا ، إذن يكون في الامكان ان نربي اناسا يملكون الشجاعة الكافية ليجابهوا انفسهم ، فيرون بان اهم واجب لديهم هو ان يكونوا مخلصين لانفسهم .

من هذا الصدق الباطني ، تنشأ قوى جديدة هي كالنيابيع الساخنة ؛ تشفي جروح الحياة ، فتمكثنا من ان نزيل ما اصبح فاسداً ، وان نضع امام اعيننا اهدافاً جديدة . بل تدلنا على اعادة البحث من جديد ، وإلى التنقيب والتفتيش ، وإلى اجراء اختبارات ومشاريع جديدة . وبهذه الوسيلة يعود الذي يتظاهر بالكساح نشيطاً فعالاً . فالمرء ابدأ يسعى الى السرور ، سواء في راحة الذهن التي تأتي من التنازل والانكار ، او من منازعات جديدة وامال جديدة — وهذا امر يتوقف على المزاج وعلى الظروف الخاصة . وإنه لاسهل علينا ان نتحمل اشد مصيبة نراها واضحة ، من ان نتحمل خطباً بسيطاً ، نعمى بارادتنا عن رؤيته .

هكذا نجد ان كثيرين من الناس يستطيعون ان يتحملوا ضربات القضاء القاسية ، في حين يخضعون لوخز الابر ، الذي لم يعبأوا به بل لم يرغبوا في ادراكه وتمييزه . فحتى الكدر ، يجب ان يعبر عنه في ردود فعل سنتها الطبيعة . ان الذي عاش حقاً هو الذي في مقدوره ان يموت .



الفصل الثالث

الحسّاسون

العالم بالآمه ومسراته يبقى ابدأ هو ذاته لا يتحول او يتغير او يتبدل . ويتوقف كل شيء على نظرتنا الى الحياة وكيف نضع انفسنا بالنسبة اليها . لقد عبّر عن هذه الفكرة تعبيراً بديعاً الشاعر (اهلند) في قصيدته المعروفة . فهو يصور لنا شابين يدخلان معترك الحياة . يأتي احدهما الى بيته متعباً منهوكاً ويحجب بلا مبالاة على من يسأله ماذا رأيت اليوم فيقول : « لم أر سوى احراش ومروج وشمس براقية وسماء زرقاء صافية . » اما الآخر فيقول ما قاله رفيقه ولكن بسرور ، وقد اهتزّت مشاعره ولمعت وبرقت عيناه . نعم رأيت الاحراش والمروج والشمس البرّاقة . ان كل شيء يتوقف على كيفية تحسّسنا باختياراتنا .

وكما كانت نفس الواحد منا منظمة تنظيمًا دقيقاً اكثر ، كلما كان اختباراه للعالم اكثر ثروة وخصبا . هنا يتفوق الشاعر على غيره لا اتصاله بالناس كل يوم . فهو يرى مشا كل الحياة في كل مكان ، وهو يلحظ مشاهد الروايات التي تمثّل على مسرح الحياة ، وهو يطرب في اطواره المزاجية ، ثم هو يرى كل شيء اوفر ثروة وخصبا ، واجمل بل اتم لونا . وهناك كثير من الشعراء لعل من الافضل ان ادعوم بالفنانين — الذين لم يخطّوا في حياتهم سطرأ او ابتكروا عملا او قطعة فنية . فهم يشعرون شعوراً فنياً وهذا ميزتهم ، بل قد تكون مصدر

عذابهم . فهم اكثر تمتعاً بمسراتهم ولكن عذابهم اشد من غيرهم واعظم . جلودهم ناعمة وهي اكثر حساسية للدغات الابر في الحياة .

من هو الذي لا يعرف «تخان الجلود» بين الناس ، غلظاء النفوس ، ذوي الطباع المتينة في مبناها ، ذوي الضمائر القوية والنفوس المغلفة بالجلود الغليظة القرنية ؟ من الصعب ايلامهم ، ومن الصعب مسهم ، وليس من السهل زعزعتهم او تغيير اساليبهم . مثل هؤلاء ينامون نوماً عميقاً بل في مقدورهم ان يناموا حيثما وجدوا وفي اي وقت ارادوا . فليس في نظرهم اي طعام رديئاً فلا يؤكل ، او اي شخص لا يصلح ان يكون صديقاً حميماً ، او اي جو قاس كل القساوة . مثل هؤلاء لا يرون احزان غيرهم ، لانهم لا يستطيعون ان ينفذوا الى انفعالات غيرهم من الناس . وهم لا يفهمون غيرهم من مخلوقات الله الآدمية الحساسة ، اولئك الذين ندعوهم عادة « بالعصيين » بل لا يفهمون كيف يمكن ان يكون المرء عصياً ، بل يحسبون ان مثل هذه الحالة الحساسة ليست سوى حالة مزاجية ، او انفعال سيء ، او انعكاس ، او فقدان المقدرة على قيادة النفس ، او فقدان القوة والنشاط . ليس هناك جسر بين عالمهم وعالم الحساسين . ونحن دائماً نلاحظ هذه الظاهرة ، اذا جمعت غريزة الشباب الغامضة المتلثسة بين اثنين مختلفين في الزواج . وفي اكثر الاحوال تكون المرأة اكثر حساسية ، في حين يكون الرجل اشد بأساً . فينتج من ذلك اختلاف متزايد بين الاثنين ينتهي عادة بأن تصبح الحياة بؤساً وشقاءً .

هذا وتتطلب الثقافة ان يسايرها مقدار من الحساسية . بل إن

تقدّم الفن جميعه يتوقف على هذه الحساسية المتزايدة ، فالموسيقيون الحديثون يسمعون انغاماً كانت آذان الموسيقيين القدم تقفل دونها ، والشعر الغنائي الحديث يعرض عن الاثر الغليظ وهرمي الى امتلاك الظلال الناعمة ، والرسّامون ينبذون المباحث الكبيرة ، او المباحث التي تستدعي شجاعة ، او الجبال العالية ، والثلاجات والشلالات ، ويسعون وراء الفروق الدقيقة ، والانغام الناعمة والتغيرات الرقيقة . والروايات لم تعد محشوة بالعمل المبالغ فيه ، بل تحاول ان تمثل حياة الناس الباطنية ، وان تتقن غير المعقول ، وان تنير الظلمة الغامضة . ولقد ظهر التقدم اكثر ما يكون في التمثيل . إذ نرى المشاهد تنطوي على حالات تحتاج الى دهاء ومقدرة ، وتتلشى الاعمال المبالغ فيها وتحل محلها العواطف التي تحرك السامع لانها تلمس فيه خيوطاً مرتبطة بانغام متألفة . وحسبي ان اذكر هنا كثيراً من روايات (Gerhardt Hauptman) التمثيلية ، و (Zwischenspiel) لشتنسلر ، ثم جميع روايات (Maeterlink) وخصوصاً (العصفور الازرق) ثم مؤلفات (إيسن) الاخيرة ، الى مؤلفات (Strindberg) وكثير غيرهم . فحتى الفلسفة تعنى بالحالات المزاجية ، فقصيدة (Also Sprach Zarathustra) المدهشة ، لنيتشه ، هي قصيدة احتوت على عواطف زاخرة ، لا يفهمها سوى المفكرين الحساسين . فالانفعال إما ان يحل محل الفكر ، او يصوغ من الفكر شيئاً حياً .

وفي مقدورنا دائماً ان نشاهد ان الجنس البشري يشتري كل

خطوة في مضمار التقدم ، بتضحيات هائلة غالية . كذلك الحساسية المتزايدة والحياة الخصبية في الرجل المذهب المثقف تتطلب ضحايا كثيرة ، وهي تشتري بالآلام التي يعجز عنها الوصف عما تعانيها المخلوقات العديدة البائسة . حتى ان رجل السوي السعيد مع زيادة حساسيته يكاد لا يتصور ما يتحمله (اشد الناس حساسية) من مثل هؤلاء المساكين . إن هذه الحساسية تتضخم فيهم فتتخذ شكلا مضحكا ، فتصبح هذه الميزة عائقاً لهم عن التقدم وتنقلب السعة الى فقر مدقع .

وقد يستحيل علي ان اصف هنا مبلغ اتساع هذه الحساسية العظيم . فاكتفي بأن اصور للقارىء في سطور قليلة شيئاً عنها . فهناك اناس تكون بعض حواسهم او جميعها مفرطة في الحساسية . فقل صوت يؤلمهم ، وتملأ جلبة المدينة قلوبهم خوفاً ، بل تخيفهم ضجة النقلات في المدينة وصفير سائقي الترامواي ، ودق الاجراس ، بل مجرد النداء او الكلام او الصراخ . ولا يستطيعون النوم إلا إذا خمدت الاصوات . فيضعون في آذانهم آلة تلتطف من حدة الصوت بل تزيله ، ويغطون الابواب بأغطية لتخفيف صونها ، وينفرون الى القرى في اهدأ بقاع المعمورة ... ومع هذا فلا يجدون راحتهم المنشودة . ذلك لان حساسيتهم ليست حقيقية بل كاذبة فهم يستعوضون بها عن السماع والحقيقة انهم إنما يخشون تمتعة صدورهم ، إذ لا يريدون ان يصغوا الى اصوات ضميرهم وهم انما يفرون من انفسهم . ان مثل هؤلاء يتألمون من سماع اصوات غريبة تدوي في آذانهم بل من رنين او طنين او دق مستديم يشبه دق الاجراس .

وهناك من هم على العكس، ممن لا يشعرون بالراحة الا في وسط
جلبة الشوارع، فادا وجدوا في حالة سكون، عجزوا عن تحمل اصواتهم
الباطنية، في حين يكاد يتناولهم النعاس في القطار او بين اصوات
المدينة. وهكذا فلكل شيء وجهتان في حياة الانسان، بل ان الحياة
بأجمعها « ثنائية القطب » .

وهناك من يتحسسون للنور البراق فيلطفون نور النهار، بما
يضعونه على النوافذ من الحجب والحواجز، وعلى عيونهم من
النظارات السوداء، ويتجنبون الاماكن الشديدة النور. (ان التمتع
بشدة النور هي عادة حديثة سيئة ستعود بالضرر الاكيد على عيون
افراد الشعوب المتقدمة) وهؤلاء يشعرون بالراحة في الظلام او عند
الفجر، مثل هؤلاء ايضا يسلكون سلوكا رمزيا. إذ هناك بعض
الحقائق مما لا يرغبون في رؤيتها. وقد عرفت سيدة شديدة التأثر
بلغت حساسيتها للنور حداً يكاد يكون اضطراباً عصياً في الرؤية —
اي اضطراباً في التكيف البصري كما بين ذلك طبيب العيون الذي
استشارته. فلم تعد تلك المسكينة تستطيع القراءة، وهكذا حرمت
نفسها من لذتها الوحيدة وانقطعت عن العالم. وقد أبت ان ترى شيئاً
واحداً، وهو انها كانت لا تحب زوجها، ولم تكن تستطيع ان تتحمله
فصارت حياتها معه عذاباً بل جحيماً... وهكذا لمكنت بهذا الاضطراب
البصري ان تعيش عيشة زوجية سعيدة في الظاهر. وقد حاولت عبثاً
ان تكيف نفسها على زوجها، وانكرت طبيعتها الحقيقية ولكن اخذت
حساسيتها تتضاعف سنة بعد اخرى في حين ظل زوجها كما هو رجلاً
شديد البأس يتشعق بوشاح من الرضى النفسي الذاتي.

وهناك أيضاً حساسية للتذوق واللمس وبخاصة للشم . فبعضهم يتأثر كثيراً بالروائح الكريهة . فالمرأة التي تعجز عن محبة زوجها تجد لقمه بالاخص، رائحة مزعجة مثيرة مما يجعل قبلاته لها تضحية اي تضحية من قبلها . بل يصبح قربه منها أمراً غير مقبول .

ولكن هذه الحساسية التي وصفناها هي جزء من جهم يتألم منه الحساسون . إذ لا بد من وصف جميع نواحي حياة أولئك وصفاً تاماً لرسم للقارى صورة جلية لما يعاينه الحساسون كل يوم .

يخرج الواحد منهم من بيته فيشعر بان الجوع اليّ المحيط به تذله ، فيعروه انفعال مزعج لا اعتقاده ان الناس يرقبونه وهزأون منه . بل يضحكون منه ضحكا غريباً وينظرون اليه نظرة غريبة . اما هو فقد اهتم اهتماماً خاصاً بهندامه قبل مبارحته البيت ، كيلا يصبح موضع هزء وسخرية . لكن كل ما يحيط به مغلوط . فربطة الرقبة لا تناسب البدلة ، ونعله يحدث صوتاً ، وقبعته كبيرة جداً لا توافقه وهو ايضا لا تبدو عليه علامات الصحة والعافية بل هو يحتار يوماً من ايامه السود . ما اشد ما يراقب كيف يسلم على الناس وكيف يردون عليه السلام . ففلان لا يراه مع انه يمر به ، ولا شك في ان هذا السلوك مقصود من السيد (أ) وهو اهانة عظمى . اما فلان (ب) فقد رفع قبعته بعض الشيء ، مثل هذا يدل على عجرفة وكبرياء . ولذا لن يعترف بشخصية فلان مرة ثانية . ويأتي آخر فيسأله عن حاله . وهذا لا شك قد لاحظ ان ذلك اليوم من ايامه السود وإذن فهو يهزأ منه . وآخر يتسم ابتسامته حيث لا يستطيع ان يخفيها . هكذا

ينقضي النهار بطوله ، فالناس يتعمدون اهاتته وهو يتعرض للازدراء
أنى توجه .

ثم يأتي شخص آخر الى المطعم فيختار مكانه بسرعة دون عنا ، اما
صديقنا الحساس فاختياره مكانه امر عظيم مشكل . إذ يجد ان الخدم
يعاملونه بازدراء مع انه يدفع لهم (حلوانا كبيراً) لكي يخدموه .
ولكنه إذا لم يحصل حالاً على طعامه ولم يترام الخدم عليه شعر حينئذ
بانه قد اهين ورأى برهانا جديداً بان العالم ليس سوى مكان ذل
واستعباد .

لا نستطيع ان نغرق في الحذر عند تحدثنا مع اولئك الحساسين ،
فانهم يجدون ابدأ اسباباً جديدة لاهاتهم . دعنا الآن تصور مثل
هذا الشخص وقد تزوج من سيدة تختلف في تركيبها الذهني عنه . او
خذ مثلاً خيراً من هذا : تصور لنفسك شخصين حساسين متزوجين
ترآ ان حياتهما تصبح جحماً على هذه الارض . فكل منهما ، يشعر
بانه قد اهين وهو لهذا ينتظر ان يرى الآخر خطأه فيطلب العفو صاعراً
ذليلاً . وتنتهي هذه المنازعات الدائمة التي لا يعقبا انتصار بان
يضمحل الضعيف منهما ، وهو الذي يعترف بانه كان مخطئاً من اجل
السلام . غير انه يتراجع عن هذا المركز حالاً ، عندما يتعافى من
هذه الحالة العصبية المفهورة .

يكفي ان نكثر من هذه الاوصاف المحزنة ، فاهم من هذا في نظري
ان تتمكن الترية المعقولة من ان تمنع هذه الحساسية الزائدة . وهنا
لا بد لي من ان اشير — كما اشرت سابقاً — الى النقص الكبير في

في تربيتنا فهي المسئولة عن تخريج اولاد بؤساء ذوي نفوس كسيحة. فان هذه الحساسية تمتد نموّاً نظامياً في ايامنا هذه ، اذ يسمع الطفل دائماً بانه يتوجب عليه ان يحجل من نفسه . وامثال هذه العبارات المألوفة تتردد في اذنه . ماذا يقول الناس عنك اذا سمعوا هذا منك ، او « يا للعار ، او « ماذا تقول عمتك برتا او عمك برني عنك ، . او « يا للنجل ما هذا السلوك ؟ ألا ترى ان جميع الناس ينظرون اليك ويضحكون منك ، . ويوصف بعض الاطفال بالبانهم « لا يهتمون بشيء اهتماماً قلبياً ، او « انهم ينظرون الى الامور نظرة سطحية ، او « انهم لا يشعرون الخ ، هكذا يثار الشعور المتزايد وخصوصاً في العائلات التي يقل اولادها او تكتفي بولد واحد . ويكاد الوحيدون ان يكونوا اطفالاً حساسين . فينشأون ثم يصبحون رجالاً حساسين .

هكذا انتقلنا من تقدم الثقافة العالي الى مبادئ التربية . ان الحياة تهتم ببقاء الاصلح فانها تمر عن الحساسين المفرطين — الا اذا لجأ هؤلاء الى الوحدة او الى فن من الفنون . وفي هذه الحالة نحولهم الى مخترعين لقيم جديدة او لمدركات جديدة .

وهكذا ندون والعجب يأخذ منا كل مأخذ — ان الانسانية جميعها هي محاولة الطبيعة لان تنتج شخصاً عظيماً يتمكن من ان يعمل حتى من الصغير عظيماً ، وعندئذ نفرح بحساسيتنا ونفتخر بأن نشعر ان الحياة انما هي منحة عظيمة .



الفصل الرابع

اقنعة الباعث الجنسي

ذكر لنا بلوترخ قصة عجيبة عن الامير وريث انطيوخوس السوري. فقد وقع سلوقس مريضاً مرضاً مزعجاً هذه قواه فلم يوفق الاطباء الى اكتشاف علة المرض ، فاحزن ذلك اباه كثيراً . وقد توفق الحكيم الشهير ارسستراتس بنظره الثاقب الى اكتشاف السبب الذي انهدك قوى الامير فكان عشقه لامرأة ابية الملكة الجميلة سترانونيس . غير ان بلوترخ لم يذكر لنا ان الامير كان يشعر بحبه هذا . والذين يعجبون كيف نحب ونجمل اتنا نحب لا يعرفون ان الحب يتغلغل في زوايا سرية بل يجهلون آلام الحب وآماله . وقد تمكنت ان ابين مراراً كيف يمرض بعض الناس بامراض مقنعة والحقيقة انهم احبوا ورغبوا دون ان يعرفوا عن ذلك شيئاً . قال جربلارزر : كل قلب له اسراره ، يخبئها بشغف حتى عن نفسه ، وكثير من الامراض التي نعجز عن تحليل اسبابها انما هي في الحقيقة حب مقنع ، كما ان فقدان المقدرة على الحب روحاً وجسداً قد يكون ايضاً حباً مقنعاً .

جاءني يوماً شاب وشكالي انه اصبح عاجزاً عجزاً تاماً عن ان يحب . ولم تكن النساء لتؤثر فيه شيئاً في حين انه كان قبل ستة اشهر يميل اليهن ميلاً عظيماً ولم يكن التقشف والزهد من طبيعته . فعرفت

حالا ان ما اعالجه هو حب سري اضطر صاحبنا ان يضغط عليه لانه لم يشأ ان يعترف به ، وانه كان لديه هدف جنسي عجز عن الوصول اليه ، الامر الذي لم يبق لاي محبوبة قيعة في نظره . فكان المنطق السري لقلبه كان يدفعه الى ان يقول « إما هذا او لا » . وقد انكر هذا الشاب ذلك في البدء . ولكنه عاد اخيراً فاعترف بعد ان ضايقته ، بانه كان مولها بابنة عم له ، غير ان حبه هذا زال بالمرّة منذ ستة اشهر . واسمع ما جرى له : كان هذا الشاب طالب طب ، وكان والداه يرغبان في تزويجه من فتاة غنية . وكانت حالته المالية سيئة فكان مجبراً على العمل واعطاء دروس خصوصية ليعيش . ولكن طراز حياته هذا كاد ينتهي لان صهره المقبل وعد ان يتفق عليه عن سعة الى ان يتخرج في كليته بل وعد بان يستمر على مده بالمال ليتخصص في فنه بعد الانتهاء من دراسته . غير ان هذه الخطة حالت دون محبته لابنة عمه الفقيرة . ولكن ارادته كانت حديدية . ان ضعف الارادة المزعوم في ذوي الامزجة العصبية امر خرافي ، فان هناك من اساء استعمال ارادته فظهرت بمظهر الضعف . اذ اجبروا انفسهم « على ان لا يجمعوا على شيء » وهكذا نسوا كيف يستطيعون ان يقرروا القيام بأي عمل ما . اما انهم يقدرّون على ان يريدوا شيئاً فلا قيمة لذلك عندهم فإيرغبون فيه يقع تحت ما تمنعهم ارادتهم عن القيام به ، وقد قال صاحبنا الشاب لنفسه : « لا تجرؤ ان تحب ابنة عمك بعد اليوم ابدأ » ، ومن العجيب انه لم يحبها بعد ذلك . وانطقاً نور الحب عنده منذ تلك الساعة . اي انه في الحقيقة لم يكن يحب سوى

ابنة عمه وقد اعترف صراحة بأنها كانت تشغل جميع احلامه. وصفوة القول انه كان يقضي حياته الجنسية في احلامه ، اما ما تظاهر به من عدم مبالاته فلم يكن سوى قناع لرغبته التي اساء استعمالها وكان عليه ان ينكرها طمعاً في المال .

وهكذا فقد كشف هذا الشاب عن طبيعتين طبيعته الظاهرية اللاجنسية وطبيعته الباطنية الجنسية احدهما جامدة باردة والاخرى حارة عاشقة ، احدهما تعب في الحياة والاخرى متفانية في الحب . ما اقل الناس الذين تشبه طبيعتهم الباطنية طبيعتهم الظاهرية !

يذكرني ذلك بقصة رسم (دوريان غراي) للكاتب الانكليزي الشهير (اوسكار وايلد) التي يظل فيها بطل الرواية دوريان فتى يافعا مرنا جميل الصورة ، ممتلئا حياة في حين تدل معالم وجهه على ما فعل الزمان والشهوات به . غير ان رسمه لم يكن سوى رمز للانسان الباطني . يقول هبّال ، الرجل كالبسيلسك (١) يموت ان رأى نفسه الباطنية ، . وهناك خرافة شائعة في كثير من البلدان تقول ان الذي يرى انعكاس رسمه في الليل يموت . وربما كانت الخرافة عن رأس (المدوزا (٢) ترجع اصولها الى « الخوف من الطبيعة الباطنية » .

(١) حيوان خرافي من الزواحف تفقسه الحبة من بيضة الديك .

(٢) احدى الاخوات الثلاث ، في الاساطير (اليونانية) شعورهن حيات ، ومن نظر اليهن انقلب حجراً . ومدوزا هي الاخت الفانية الوحيدة قتلها فارسيوس ووضع رأسها على ترس اثينا .

واي رغبة مثارة تختبئ خجلة من نور النهار أكثر من بواعث الحب . ان العالم جميعه مضطر الى ان يقنّع نفسه من الوجهة الجنسية . ولا يتناول كلامنا هذا الاقنعة التي نضعها ونحن نشعر بأننا نخش بها غيرنا . ولكن همنّا ان نرى كيف يقنع الناس انفسهم من انفسهم فيختبئ باعث الحب الجنسي وراء الامراض الجسدية .

لحب ثلاثة اقنعة مهمة : الحياء او الخجل ، والشوق والاحتقار . ويطول بنا الحديث ان حاولنا ان نبين بسلوكولوجية هذه العواطف بالتفصيل وقد يكون اوضحها الخجل .

ان الانسان الطاهر كل الطهارة اي الذي ليس لديه اية فكرة جنسية لا يعرف ما هو الخجل ، فالخجل إنما هو اعتراف بالغريزة الجنسية .

والذي يخفي باعث الحب هو الذي يخجل ، وليس احمرار الوجه سوى بعض اشكاله . والذي يقدر ان يحمرّ وجهه خجلاً يثيره اقل مهيج . وما العفاف بالاكثر سوى اثر من اثار القهر والضغط ، وهو من ثمار المدنية . وليس الاحتقار سوى رغبة نعبر عنها تعبيراً سلبياً . والخوف يقف حارساً يحمل سيفاً من نار يحرس باب الجنة فيمنع دخول المرتجفين الذين يتعطشون الى ارتشاف اللذة والسرور .

والآداب العامة على حد تعبير (سيمبليسموس) هي الخوف من حصول شيء ما ، . إنما منشؤها فالخجل والشوق والاحتقار معاً . وما اسهل ان نبين علاقة ذلك بالاحتقار . وإذا كانت الملكة حنة قد

بصقت بادىء الامر في وجه ريشارد الثالث الذي كان يحاول اكتساب رضاها مع انه قاتل زوجها المحبوب ، لكي تظهر احتقارها له ، فان ذلك قد تحول بسرعة الى رغبة فيه ، فالاحتقار والرغبة (طرفان متقابلان) وكلاهما يعبر عن القوة ذاتها .

يعتقد (لستنج) ان اسرع شيء في هذه الحياة الانتقال من الخير الى الشر ، لان الخير والشر يكادان يكونان الشيء ذاته ، ذلك لان الدوافع الادوية إنما تبنى على الدوافع الاجرامية ، إذ يمر خط مستمر في التقدم والرقى من القاتل حتى يصل الطبيب الجراح . والطبيب الجراح في الواقع إنما هو القاتل الذي جهز نفسه لمطالب المدنية ، ثم صعد بواعثه غير الاجتماعية الى اشكال راقية .

ان جميع ذوي الامزجة العصبية الشاذة يملكون بواعث قوية . وهم في نظري « معاقون » ، كالقاتل او الفنان . وحياتهم هذه التي تزخر بالبواعث تجعلهم دائماً في نزاع مستمر مع محيطهم . فعليهم إما ان يستسلموا الى بواعثهم (وهذا لا يستطيعونه ولا يجرأون عليه) او ان يتسلطوا على رغباتهم فيقهروها . ولما كانوا يشعرون بضعفهم لذا يحافظون على انفسهم من ضعفهم هذا وذلك عن طريق « الخوف » . فكل لهف او شوق إنما هو الخوف من الذات ، غير ان المرضى لا يعترفون مطلقاً بهذا الخوف الا اذا الجثوا الى ذلك ، وحتى عندئذ انما يفعلون ذلك بالرغم منهم . ولهذا تنشأ عندهم محاولة للتقنيع . لقد بينت في كتابي (حالات الشوق العصبي ومداواتها) وجود اقنعة مختلفة لهذا الشوق . واني اختلف مع فرويد عندما يقول ان

الليبد (١) يتحول تحولاً عضوياً الى شوق . وان هذا (الليبد) يبدو في علامات واعراض جسدية . واعتبر ان جميع اقنعة الشوق هي اعمال ذات منشأ بيسيولوجي . ولقد وفقت دائماً الى اكتشاف وجه الشبه بينهما كما تبين لي من اعراض المرض . وجميع العصبيين يميلون الى تحويل انفعالاتهم الى احساسات . وهكذا فان السيدة التي تكون غير مسرورة في حبها دون ان تعترف لنفسها بذلك تتألم من اوجاع قلبها . كما ان احتقارنا لرجل ما ، قد يظهر في اضطراب في الهضم او في ضعف او عجز او ميل في الدوخة او ألم في الرأس . غير ان وراء هذه جميعها تجد اقنعة لحنين طال امده ولم يشبع . وهكذا ينشأ النزاع البيسيولوجي من جراء ضغط الباعث ومن قهرنا الرغبة ذلك القهر الناشئ عن احترامنا للمدينة . ويزداد اضطراب هذا العصبي (النفروز) الى تقنيع ما تثيره الرغبة في نفسه ، ويرفض ان يعترف لنفسه عن رغباته التي تضايقه ، تلك الرغبات الضاغطة التي تعتبر خطيئة خلقية .

والخلاصة يحدث شيء من التفاهم بين الاعراض العصبية والشوق العصبي ، ونشاهد في الحياة الزوجية نوبات سببها الشوق تُخيف كلاً منا والذين يعانونها بالاختصاص . فعند نهاية حلم في النهار بعد ان يكون قد تلاشى من شعورنا او عند نهاية حلم في الليل ، ينشأ فينا شعور بالشوق عميق ، فنشعر اننا نكاد نفارق الحياة ، فيأخذ القلب ينبض

(١) الليبد هو القوة الجوهرية ، او الغريزة او الميل . ولا تكون هذه القوة جنسية دائماً ، فقد تكون الغريزة جوعاً . وهذه الغريزة الجنسية هما الغريزتان الانانيتان الاوليتان اللتان تولفان اساس معضلة « النيوروز » .

شديداً او يضعف حتى نكاد لا نحس نبضنا ، ويصفر لون المريض ويشعر كأن ساعته الاخيرة قد دنت ويتخلل ثنيا شعورنا بالخوف ، احساسات غريبة عجيبة (طبيعتها ليديّة) مثل حسنا بالخلاص او حسنا بفرح عظيم او غثيان حلو لذيد . وقد دلت نوبات اخرى عن صورة معروفة كخوفنا من ان نضرب ، فكانت ترجع الى ذات الاصول البسيكولوجية . بل تمتزج الخصلة الاجرامية بهذه الظاهرة امتزاجاً عجيباً تعرف (بالاجرام غير الفعّال) . فان سيدة كانت ترغب سرّاً بان يموت زوجها من نوبة صرع ظهرت عليها اعراض خوف مرضي من مثل هذه النوبة . وقد حققت في هذا المظهر ودعوته (بالابتقام العصبي) تظهر فيه الحياة والموت بصورة واحدة . فالفكرة اللاشعورية لعمل غرامي تعمل كموت القانون الخلفي ، ذلك القانون الذي كان دائماً يتحاشى القيام بمثل هذا العمل . فالموت الاجتماعي وفناء جميع الروادع الادبية ، يتحدّان في حالة غيبوبة ، فيجمعان بين الحياة والفناء . ونوبة الشوق تظهر نفسها في درجات مختلفات متفاوتات ، في اشكال ملطفة . وقد نجّمع بين جميع درجات الشوق من الشعور البسيط بالقهر الى الموت الظاهري ، وقد تبدو في شكل ضربات القلب في الليل او في النهار احياناً . ونستطيع ان نتبين اعجب هذه الاقنعة في القلب على الاخص .

وهناك بنات يتألمن من اوجاع شديدة في قلوبهن . فمثل هؤلاء قد غيرن انفعالاتهن الى احساسات ، فهن غير مسرورات في حبهن ولكنهن لا يعترفن بذلك لانفسهن . ولقد شاهدت اشكالا عجيبة من هذه

الآلام في القلب ، فمن ذلك بنات كن يعشقن رؤساءهن ، وطالبات كن يحببن معلمين ، ورجالا يحبون نساء اعز اصدقائهم ، وكان لكل واحدة من هؤلاء دوافع خاصة لاخفاء اسرارهن عن انفسهن . غير انه كان لا بد من اظهارها بشكل رمزي إذ لم يكن هناك بد من ايجاد منفذ لهذه الدوافع مهما كان . وليس هذا مجرد كلام ولا هو من قبيل تداعي المعاني المصطنعة كما يظن كثير من النقاد ونحن في الحقيقة نحول هذه المجاري العصبية الى القلب . فلنا « قلوب كبيرة » ولنا « قلوب رقيقة » و « قلوب تواق » . ومثل هذا الشوق العصبي قد يظهر نفسه في اشكال اخرى في القلب . فيكون ذلك في خفقانه او في اخراج اصوات « خافقة » فتظهر كأنها لم تجد لها مكاناً في الصدر ، او كأن ضربات القلب غير منتظمة او كأن القلب يكاد يقف . وكذلك تقنّع الغريزة الجنسية نفسها في اضطرابات تظهر في اعضاء التنفس فما يعرف « بضيق التنفس العصبي » او الربو العصبي « وفي التهيدات الدائمة التي تدل على نوع من الحنين ، ويأتي مع ذلك ما يعرف « ببلع الهواء » واضطرابات عضوية في نظام التنفس احياناً . وقد اثبت اكثر من مرة ان مرض ضيق التنفس قد يكون منشؤه اجرامياً . كذلك الامر في « حمى الخريف » والرشح فقد يكون مقنعاً كما وصفت ذلك في كتابي « حالات الشوق العصبي » .

لقد سبق واكدت ان الاحتقار يمثل شعوراً سلبياً لرغبة شديدة ، وكمن اوجاع في المعدة ليست سوى اضطرابات عصبية يمكن ارجاعها الى انفعال لاشعوري بالاحتقار ؟ فكثير من البنات اللواتي يمتنعن

فجأة عن اكل اللحوم يملكن في نفوسهن احتقار كلبا يمت الى « الجسد »
 بصلة . ذلك الاحتقار الذي ينقلونه الى الغذاء . وهذا المظهر قد
 نشاهد في الرجال ايضاً ، ولا سيما في بعض المتعصبين النباتيين الذين
 قد يرجع تعصبهم هذا الى مثل تلك الاصول . وبالطبع فان احتقار
 اللحم (الجسد) هذا ، يفسر تفسيراً معقولاً ويربط بدوافع اجتماعية
 او انسانية .

ومثل هؤلاء ينضمون بلا عناء الى الحركات الكبرى والنهضات
 الهامة ، لانهم يحاولون ايجاد تفسير اجتماعي لصراهم الخاص . هذا
 النوع من (استبدال المثل الاعلى) هو القوة الدافعة لكثير من
 النهضات التي ترمي الى الامتناع عن (الخمر او غيرها مثلاً) والتي
 تتصل اتصالاً وثيقاً بمول التقشف والزهد . وكذلك (طلب الشهرة)
 فانه قد يخدم (كدفاع ذاتي) عن الرغبات المكبوتة .

ليس في الامكان ان نصف في هذا الكتاب بالتفصيل جميع اقنعة
 اله الحب بل نكتفي بذكر شي عام عنها .

ان الاضطرابات المختلفة عند استراحتنا في الليل ، والقلق من جراء
 عدم النوم ، والارتجافات الليلية والاختقانات ، جميع هذه من الامور
 التي يجدر بنا ان نبحثها بحثاً مفصلاً . فالدوخة التي تصيب بعض الناس
 اثناء سيرهم في الطريق فيخشون بعد ذلك ان يخرجوا منفردين ، إنما
 تدل على شكهم في انفسهم ، إذ تظهر بمظهر محزن (هو الخوف من
 الوقوع) وهذه الدوخة تنتج ميلاً الى الوقوع الى جهة اليسار . اي
 تظهر بصورة رمزية عكس (العمل الصحيح) اي الميل الى اليمين .

والاضطراب العصبي يرضى عن هذه المظاهر الرمزية لان المريض يستطيع فيها ان يبين ضعفه للعالم بالاجمال ولمن يكونون في محيطه على الاخص ، ويتمكن في الوقت ذاته من ان يخفيها . (والاضطراب العصبي هو استبداد الرمزية) . حقاً ما اغرب ما تحجب به بواعث الحب . اذكر مهندساً ميكانيكياً لم يستطع ان ينام مدة اشهر لتفكيره في مسألة ميكانيكية ، واخيراً اكتشف آلة للاضاءة من بعيد ، تمكن بها ان ينير ضوءاً بلا اضواء في غرف نائية . غير ان هذا الشاب جهل ان الفضل في اكتشافه هذا يرجع الى حبه لابنة عمه التي كانت تعيش معه في دور واحد في ذات البيت ، وكان يفصل بينه وبين غرفتها ، غرفتان وكانت احلامه تدل بصراحة على رجائه بان تحن اليه ابنة عمه فتخبره وتتصل به . فكان يرغب في ان يلهب شعورها بمخترقا الجدار الذي كان يفصل بينهما . اما هي فلم تكن لتلاحظ شيئاً من هذا . ولم يكن هو ذاته اثناء النهار ليرغب في شيء من هذا في الظاهر ، وكان اختراعه هذا ثمرة جيدة لرغباته المقموعة افاد منه افادة مادية كبرى .

وكم من حوادث القلق في النوم يمكن ارجاعها الى رغبة غير مشبعة ، الى هذا التعطش للحب ا ومن اغرب الامثلة التي صادفتها في مشاهداتي ما يأتي : اخ واخت كانا يتيمين ومتحابين ، وكانا ينامان في غرفتين متلاصقتين ويسهران ليالي عديدة . فكان يصرخ قائلاً : « هل انت نائمة يا برتا ؟ فتجيبه : « لا . لا استطيع ان انام . لماذا انت يقط يا هنري ، ؟ » .

وهكذا تمر الليلة تلو الاخرى . وقد نصحتهما ان يفترقا وان يعيشا منفردين ، ولم يكن ذلك ليعجبهما ولكنني اكدت عليهما ذلك ، ولم ابين اسبابي لهذا التأكيد ، فكان من نتيجة ذلك ان اصبحا ينامان نوماً عميقاً كانا يشتهيانه .

وقد يجد المرء مجموعة غريبة من الاسباب لمثل هذا الارق . فهناك الام التي تسرع كل ليلة الى فراش ابنها البالغ ثلاثين سنة لتمسك بيده مدة ساعة ، عندما يشكو من (نوبة في قلبه) فلا يجد علاجاً لذلك إلا إذا اقتربت امه من فراشه وجلست عليه ووضعت يدها على قلبه . وبعد ان منعت (رحلات) الام الليلية تمكن هذا (الصغير) من ان ينام نوماً هادئاً مطمئناً طول ليله دون ان يشكو من النوبة القلبية .

وقد يدوم هذا الارق في الاطفال وقد يرجع الى تهيج غريزة الجنس قبل اوانها . ويحاول بعض الاطفال ان لا يناموا ليروا ما يفعله الكبار . هذا وان تغيير غرف النوم في مثل هذه الاحوال يأتي بالمدهشات .

ما اشد تعقد مشكلة الجنس، وما اكثر علاقتها بالدوافع الاجرامية وفي المخاوف المختلفة ! ومن الامثلة الواضحة ما يشاهد من الخوف من ارتياد الاماكن العامة والاسواق التي يتخذ الخوف فيها دور المدافع عن الفضيلة . فيفقد المرضى ثقتهم بأنفسهم ويستعملون هذا الخوف دفاعاً عن انفسهم ولكي يحصلوا على حماية غيرهم . فالخوف من القذارة المشهور ، إنما هو الخوف من القذارة الخلقية ذلك لان العصر القذر قد اعتبر الطرق الطبيعية (قذارة) .

ومن السهل ان ندرك ان الاضطراب الذي يبدو في الرغبة
الالزامية للفعل إنما هو رمز لمحاولتنا تطهير نفوسنا . او ميل الى ان
تطهر من جميع اوهامنا الملوثة . ومن الضروري ان نتوسع في البحث
لكي نصل الى الاسباب الجنسية لهذه المخاوف المختلفة .

ما اكثر ما نستطيع ان نذكر عن انحرافنا عن الباعث الجنسي
الاعتيادي . فانك لتجد هذه الانحرافات تتحجب باقنعة غريبة ،
ويسهل اكتشافها في اشكال (الفيشية (١) المختلفة) .

وعند اختيارنا مهنة ما ، نرى اثر هذه (الفيشية) يظهر في رغبتنا
الواضحة في شيء معلوم ، وهذه الرغبة تقودنا الى اختيار مهنتنا . فالذي
يجعل من القدم (صنمه) يصبح نعالا ، او مجتبرا للعظام او من
يعالج العظام والاذافر ، في حين ان من يجعل اليد (صنمه) يصبح
تاجر قفازات او يعلّم الاظافر او يفتح البخت في الايدي .
والمتعطشون الى الدماء الساديين (٢) يصعدون بواعثهم فيصبحون
جزارين او مولدين او جراحين ، او ضباطا او جنودا .

وكثيراً ما تكون المهنة قناعاً ليس إلا ، لتتمكن (الفيشية) من
التقنع تقنّعاً فعالاً ليسهل استعمالها ، وأنخذ هذه الفرصة لان اتشدد

(١) الفيشية — هي عبادة الجهاد من قبل المتوحشين على انها تملك
ارواحاً ذات سلطة روحية .

(٢) الساديون نسبة الى الكونت دي ساد ١٧٤٠ — ١٨١٤ ومنها
الحب المعكوس بتعذيب المحبوب .

في القول بان ليس هناك انسان صحيح عادي بكل معنى الكلمة ، فكل منا شاذ في ناحية من نواحي حياته ، ويعتبر فرويد كل طفل ، مخلوقا كثير التحوّل ذا طبيعة معكوسة ، وهذا الميل لا يُزال بالمرّة ، فان الغرائز المعكوسة لا يمكن تصعيدها واعلاؤها جميعها ، ولهذا يظل قسم كبير من هذا الميل المعكوس يعمل في الانسان الصحيح العادي ، فاما ان برضى (هذه الامور لا تظهر لان الناس يحرصون على اخفائها) او يفتّع فيختفي عن الشعور .

ولقد تمكنت من اثبات ذلك في الميل الغلامى . إذ عندما يتعرف المرء باقنعة الميل الغلامى يعجب لخطورة هذا الحب الغلامى وتأثيره العجيب في الادب الحديث . والنساء اللواتي يعجزن لجنهن عن ارتكاب خطأ مناف للاخلاق يسرقن شيئا لا قيمة له ، ولكن سرقتن هذه هي رمز لارواء العمل الممنوع^(١) ، ونرى ان المغزى الرمزي للشيء المسروق يبين عادة طبيعة العمل الغريزي .

(وجنون الحريق) اي الاحراق عن عمد ، ليس سوى قناع على الاغلب . خذ مثلا بارزاً : الخادمة الصبية التي احترقت يدرأ . فقد اعترفت لقاضي التحقيق انها صبّت زيت النفط على فراش صبي السائس ثم اشعلته ، لكنها لم تكن تعلم انها تحب ذلك الصبي ، ولهذا ارادت ان « تلهب » حبه لها .

(١) هذا الميل يعرف بالكلبتومانيا اي جنون السرقة . وليس الدافع لهذه السرقة الحاجة .

دعنا من الالقعة الآن ، ففي امكاننا ان نكتب مجلدات عنها . إنما نريد ان ننبّه الانظار الى بعض الحركات الاجتماعية الهامة التي يمكن ان نكتشف وراها احيانا بواعث غرامية .

لقد تكلمت سابقا عن حركة النباتيين ، وعن الامتناع عن تناول المسكرات . واعرّف حادثة في هذه المناسبة لطبيب عزب اسس جمعية لمقاومة الامراض التناسلية . وقد افتتحها بخطاب مدهش في محاربة الدعارة التي كانت تسمّى افكار الشيبية . فحمل في النادي على اعناق الشيبية الناهضة ، وكان من السهل على هذا الرجل ان يدعو الى الامتناع والعفة . فقد تبّين لي فيما بعد انه كان عنيّنا وكان يحتاج الى ان يكتسي برداء لائق من الفضائل يتشعّب به ، بل كان يشعر بضرورة ستر ضعفه الفاضح .

ان بين امثال هؤلاء من الذين يتصدون لحماية الاخلاق العامة ويخشون عليها الانحلال ، ويرشدون البوليس الى افراد الهيئة الاجتماعية ، الذين يعشّون في نظهرهم بقوانين الاداب العامة ، اقول ان بين هؤلاء نرى اشخاصا من طبيعة غرامية صرفة ، اناس يعجزون او يمتنعون عن اتمام وظائفهم الطبيعية فينشدون الخلاص والطمأنينة الممكنة في الاعلان عن انفسهم .

واذا كان الجماع الذي وصفته في غير هذا المكان هو دون كيشوت (١)

(١) بطل رواية هزلية — القها ميغل دي سرفانتس بعد خلاصه من الاسر في الجزائر سنة ١٥٨٠ وكتب روايته سنة ١٦٠٥ واتمها سنة ١٦١٤ ملؤها السخرية على تبجح الفروسية في القرون الوسطى ،

المقنع الذي يستبدل حريمه بما يجمعه من الادوات ، او الشخص الحائق الذي يجمع رسوما او كتباً غير لائقة ، هو على كل حال شخص يتابع الموضوع باختياره وبنشأته .

وسواء أدرسنا هذا الموضوع من جهة الدوافع الايجابية المتغرضة ام من ناحية الدوافع السلبية ، كالنفور او الكراهية ، فان الحقيقة هي ان ما نسعى اليه هو ذاته . ولو امكنا رؤية ما يحول في اذهان بعض مروجي الدعايات الذين ينضمون الى (لجان المراقبة) لامكنا ان نكتشف اكتشافات غريبة .

اعرف معلم ديانة اخذ على نفسه ان يفتش جميع المخازن التي تباع رسوما مخلقة بالآداب ، ويخبر البوليس عنها ، مما ادى الى فرض رسوم باهظة على اولئك البائعين . وقد جاءني يوما يرتعش وهو في حالة شديدة من القلق فقد كان سلك سلوكا شائنا مع صبية وكان يخشى ان يحال الى المحاكمة .

يذكر لنا (الفرد برجر) صورة عن هذا النوع من الرجال في روايته (هفرات ازهردت Hofrat Eysenhardt) إذ يصف في كتابه هذا قاضيا في فينا كان صارما عديم الشفقة مع الذين يخالفون الآداب العامة ، وكان يلفظ في شأن اولئك احكاما بربرية لم يسمع بمثلها . واخيراً وُجد هو نفسه مذنباً في حادثة خلقية لمخالفته الآداب العامة ، إذ عثر عليه يوما مقتولاً في مكتبه ، وقد كتب هذه الجملة « باسم صاحب الجلالة الامبراطور ا ارتكبت خطيئة مميتة وها انا اجازي نفسي بجزاء الموت — الامضاء هفرات ازهردت — » ، أن قسوة احكامه

في هذه الحادثة كانت نوعاً من الهرب من رغباته التي كانت تعاوده دائماً او ملجأ للشهرة والصيت، بل حماية نفسه من نفسه .

مثل هذه الحوادث تنير لنا السبيل عن الرجل الحديث المثقف كما ينير المشعل الفرقة الظلماء . فان كبت الغرائز الطبيعية الشائعة الآن يجعل من المستحيل على الفرد ان يحارب ميوله المريضة ويقهرها ، بل قد لا يعرف هو نفسه ، بانه معرض اليها . فالاحتقار والمقت والحق لا تعتبر وسائل دفاعية فحسب ، بل هي مبادئ للفضائل . ولا نستطيع ان نحارب هذه الميول المريضة وتتغلب عليها ونحن شاعرون ، إلا إذا اعترفنا صراحة بوجود هذا العدو الداخلي .

ان ميلنا الجنسي هو نصيبنا في الخلود . كم من الناس يقعون ضحايا للزهد لانهم يتطلعون ليروا فيه السلام الابدي ، والخلود ، مقابل ما يضحون به ، ياله من تشويه للحقائق ! لان الذي ينال احتقار الميل الجنسي — ينال الموت بل الفناء في الوقت نفسه . والعالم يضحج بمثل هؤلاء الحقى .

والحق مع (ويتلز Wittels) عندما يتكلم عن حاجتنا الجنسية ، لان هذه الحاجة الجنسية نفسها هي التي تبعث فينا اعمالاً دفاعية ، وهي بواذر عصر ذهبي صحي مقبل . ومن مصائب الحب التي نعجز عن تسميتها والتي لا تورث ، ستنشأ حركة اجتماعية ، تدعو الى حقنا في ان نحب . هذه الحركة ستطلب الاعتراف بالمساواة الاجتماعية بين الجنسين .



الفصل الخامس

الجماع

The Collector

نجد هذا الجماع في انواع مختلفة . فليس هناك اي اداة يمكن تصورها لا يصح ان تكون هدفاً لشوقه الشديد الى الجمع . فاذا كان يحب الفن — تراه يجمع الصور ، والقطع المحفورة ، والآثار القديمة ، والصيني ، والطبعات الاولى من الكتب ، والادوات النحاسية ، وإذا كان من ذوي العقول العلمية ، تراه يبتدىء بعمل بستان نباتي ، او يلتقط الفراش ، ويجمع معادن ، او نقوداً او بكتيريا او غير ذلك « من الشواذ » . او قد يقوده شغفه الى جمع طوابع البريد ، او الساعات ، او العصي ، او المظلات ، او الدوي ، او الازرار ، او البرانيط ، او الاثاث ، او الاضواء . او حواجز نارية (حواجز توضع بين النار والجالس في الغرفة لمنع الاشعة من الوصول رأساً) .

وقد يرتبط جنون هذا الجمع احياناً برغبات غرامية . وفي مثل هذه الاحوال تراه يسعى وراء جمع مشدات او نعال او محارم او مرايل او صدارات او شرائط او جوارب او اربطة او ضفائر من الشعر او كفوف يد او عكاكيز .

وكل هؤلاء الجماعين فيهم جنون للجمع ، وتتملكهم عاطفة تتولد

من عملية اقتناء الاشياء . ويكون الاضطراب لامتلاك الشيء المحبوب كبيراً الى درجة انه يقود المرء في الاحوال المرضية الى ارتكاب جريمة . والذين لم ينشأوا على الجمع لا يعرفون العذاب والانصباب الذي يتضمنه اكتساب كل شيء جديد . فيبتدىء الجماع بتقدير الشيء ثم التفكير فيه ثم التطلع اليه ثم الرغبة فيه ويعقب ذلك نزاع بين الشخص وبين الشغف المتزايد ثم الاستسلام النهائي بالخوف ان يقع الشيء المرغوب فيه في ايدي الغير ثم حتى التملك فتدليل الشيء ثم معالجته وخصه والانغماس فيه - وتأتي بعد ذلك الحالة الذهنية العجيبة التي تتولى المرء في الايام الاولى من امتلاك الشيء . ثم السأم بالتدريج ثم زوال الشيء القديم امام المحبوب الجديد . هذه العاطفة التي يبالغ المرء فيها نحو الشيء المحبوب تنطبق على جميع الجماعين . ولا ريب في ان جماع الرسوم يجمع صوراً لمشاهير الرسامين كمبراندت او فانديك او غيرهما من التي يعلق عليها اهمية عظيمة . وبعضهم يحرص على عدم السماح لغيره بفحص الصورة وهي قريبة خوفاً من ان يدركوها ادراكاً صحيحاً لان الادراك المغلوط ضروري في الجمع كما هو في الحب . وكما ان المحب يبالغ في محاسن محبوبته ولا يرى فيها عيوباً (١) بل يراها كلها محاسن كذلك الجماع ، فهو يدعي انه يملك افضل نموذج من نوعه . وانه لا يوجد من يملك مثله سواء . وهذا الاعجاب في ندورة الشيء خاص بكل الجماعين ، فهم من هذه الجهة يشبهون الرجل الذي يريد ان تكون زوجته اجمل زوجة .

(١) وعين الرضى عن كل عيب كليله .

ويلاحظ القارىء انني اعلق اهمية على الوجهة الغرامية في جنون الجمع غير انني اعرف مظاهر هذا الجنون الاخرى . إذ لا شك في ان جامع طوابع البريد يسبح حول الكرة بواسطة طوابعه بل يعيش في تاريخ الطوابع فيعزل ملوكا ويحتفل بالحوادث التاريخية الهامة عند امتلاكه طابعا خاصا . ولكن مهما قلنا في ذلك فانما كل جماع يؤسس (حريما لنفسه) .

ولقد وصف الشعراء بتوسع جنون الجمع هذا . واتي لاكتفي من مئات الامثلة بمثل للشاعر الفيلسوف كبير مجرد الذي كان نفسه جماعا . فقد وصف نفسه عندما اراد ان يشتري منضدة كتابة قديمة قال :

ولمحت من سبع سنين منضدة للكتابة في مخزن احد بائعي الاثاث القديم فغذبت نظري . ومع انها لم تكن من النمط الجديد ولم تكن صالحة للاستعمال ، رغبت فيها . وانا عاجز عن وصف العاطفة التي تملكنتي ولكنني اظن ان كثيرين قد اختبروا مثل هذا الاختبار . وكان عملي اليومي يدفعني الى ان اجتاز من باب مخزن ذلك البائع . فكنت انظر اليها نظرات حب اثناء مروري . ومع الوقت اصبحت هذه الرغبة في تلك المنضدة حادثة في حياتي بل اصبحت رؤيتها احدى ضروريات حياتي ولهذا كنت اغتير طريقي مرارا لكي اراها . وكلما زادت رؤيتي لها زادت رغبتني في اقتنائها ، وكنت اعلم جيدا ان هذه الرغبة كمالية لانها لم تكن تفيدني ولم يكن لي سوى ان اعرف ان شرائها انما هو اتفاق ثمنها عبثا غير ان من الغريب ان مثل هذا الشوق

الشديد لا بد ان يجد عذراً . وفي يوم من الايام دخلت المخزن الذي كانت فيه ، وبعد ان سألت عن امور كثيرة وكنت على اهبة الخروج ، عرضت على البائع صدقة ثمنا بخسها لها . وظننت ان البائع يقبل بطلبي فتصبح المنضدة لي باتفاق عجيب . ولم تكن الدراهم هي التي اوحى لي هذا الطلب بل رغبتى في ان اريح ضميري غير ان محاولتي لم تثمر ولم يقنع البائع واصرت على عناده . وظللت امرت من امامه كل يوم وارمق المنضدة بنظرات متتابعات فقلت في نفسي لا بد لي من ان اقرر احد امرين . فاذا ذهبت المنضدة ويبت اكون حينئذ قد تأخرت كثيراً . ولو تمكنت في المستقبل من ان اعرف مصيرها ، إلا اني لن احصل على الرضى ذاته . ودق قلبي عندما دخلت المخزن للمرة الثانية . فاشتريتها ودفعت ثمنها . وقلت لنفسي هذه هي المرة الاخيرة التي اسرف فيها مثل هذا الاسراف ، ولكنني اشعر اني سعيد لانني اشتريتها فكلما نظرت اليها الآن تذكرني باسرافي ، ولا بد ان هذه المنضدة ستفتح عصراً جديداً في حياتي . ولا يخفى ان الرغبة المعكوسة تظهر كأنها صواب ، وطريق جهنم مفروشة بالقرارات الصائبة .

ووضعت المنضدة في غرفتي ، واخذت اسير امامها ذهاباً واياباً ، كما حدث لي في ايام شغفي الاول عندما كنت اسر لرؤيتي اياها من الطريق واخذت رويداً رويداً اعرف داخلها وجواريرها ، ومقاطعها ورفوفها وسررت من كل جهة بمنضدتي .

ليس لي ما ازيده على هذا الوصف — ولا حاجة بي الى ان اؤكد او افسر شيئاً . إذ لا يمكن وصف درجات الشغف باحسن من

هذا الوصف ، ولرب سائل يقول ولماذا هام الشاعر بتلك القطعة من
 « الاثاث القديم » ، إذ نرى مثل هذا الشغف في الاشياء القديمة في اناس
 لم يتجاوزوا سن طفولتهم لانهم يتمسكون بالماضي ، وينغمسون في
 رغباتهم القديمة في الحياة . ايتلون ابدأ اطفالا ؟ ان كل الجماعة
 اطفال ، كما ان كل الاطفال جماعون ، وان سرور الطفل بالجمع امر
 معروف مشهور . فأينا في صغره لم يجمع حجارة ، او صدفا او صراصير
 او طوايع او نقوداً ؟ وما اقل من حملوا معهم هذا الشوق للجمع في
 حياتهم ؟ والرغبة في الاشياء المختلفة يتوقف عليها في المستقبل ما نشعر
 به من السرور عند احتسارنا شيئاً من الاشياء ، إذ نصبح نريد شيئاً
 واحداً فقط ، ولكن يجب ان يكون هذا الشيء ثميناً جداً ويكون
 ملكنا طول الحياة . هذا هو النزاع بين تعدد الزوجات او وحدة
 الزوجات ، وبين فكرة الحریم ، والاخلاص الابدی للفرد .

ان الجماعة هو (دون جوان) (١) في تخيله وقد يكون في الحقيقة
 متقسفاً او اشد الازواج اخلاصاً . فيستعيز بواسطة « حریمه » اي
 ينقل ميوله الى تعدد الزوجات في اشياء لا تضر ولا تنفع . يلاحظ هذا
 بالاخص في الجماعة الشاعر بعشقه اي « الفتيش » - الذي يعيش عيشة تقشف
 ويرفض فكرة الزواج ، إذا استطاع ان يكون عنده « فتيشه » فيجمع نعال

(١) بطل رواية اللورد بايرون نشرها بين سنتي ١٨١٩ — ١٨٢٤ . قال
 عنها بايرون « سيُعرف دون جوان بما قصده ان يكون هجواً مساوياً الحياة
 في المجتمع لاثاء على الرذيلة » .

السيدات ويختبر جميع حالات الحب العاطفية ، ويهتز منفعلا كالمتلهم
كما لو كان الامر حقيقيا لا امراً مضى

نرى في ما قلناه مثالا واضحا لنقل العواطف وهو ما ارجو ان
امثل عليه في هذا الكتاب .

فالرغبة ، التي ابتداؤها رغبة حب صافية تنتقل من الشيء بأكمله
الى صورة رمزية . وكل الجماعين هم ضحايا ، للرمز الحبي ، ولا يمكن
اشباعهم ابداً ، انما يستمدون حياتهم من الارواح ، ويطفثون ظمأهم
الى الحب باشكال خيالية . لهذا لا يعرف الجماع الطمأنينة ابداً ، ولا
ينفك عن الجمع .

وإذا اتفق ان باع مجموعته ، تراه يبدأ حالا بجمع اخرى ، او تراه
يحاول ان يبدل الذي عنده بغيره ، او يغير او يحسن مجموعته . لا ينتهي
من الجمع حتى يقبضه اعظم الجماعين اليه ، فيريحه من اعماله في
هذه الدنيا .

ولو علم الناس مقدار ما ينفق من الحب والالم سدى في مبيع
هذه المجموعات لاجتمعا عن شرائها . ولكن يظهر ان الحياة تصبح
متعذرة إذا نظرنا الى كل شيء . هذه النظرة الجدّية . ان افراحنا منتزعة
من آلام غيرنا ، وقيمة الصيد في نظر (دون جوان) تأتي من كونه
إنما يحاول اصطياد امرأة غيره وهكذا الجماع فانه يسر ان يحصل على
نموذج قيم من شخص آخر . وإذا كان الجماع (دون جوان) مقنعا
فقد امتاز على قرينه الشهير الذي جزءاً حياته في متابعة شهوته البهيمية .

غير ان الاشياء التي يرغب فيها الجماع لا تفقد قيمتها بهذه السهولة . بل بالعكس فان قيمتها تزداد مع الزمن . فان طابع البريد الذي لا قيمة له اليوم تقريبا يصبح نادراً بعد مئة عام . والاثاث البيتي تزداد قيمته كلما تقادم عهده

اما النساء ؟

ومع هذا ننسى ان تلك التي كان يملكها (دون جوان) ظلت فتية ابدآ في ذاكرته — وقد كان كما هو الواقع جماعا لتذكاراته .
كم من امور في الحياة ليست سوى مجموعة خاملة من التذكارات التي نبذها في (اللاشيئة) .



الفصل السادس

سباق الشوارع

ما اسعد اولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن العذاب القاسي الناشئ عن « الاعمال الاجبارية » او « المزيجات » ، فالفكر يصارع السخف صراعاً ضعيفاً ، ولكنه يضطر الى ان يرضخ لهاتف باطني يناديه بلهجة الأمر قائلاً « يجب عليك ان تفعل كذا وكذا » . هكذا يرضخ المتألم ويستضعف امام هذه الارادة الباطنية خوفاً مما قد يلحقه من قصاص مخيف ، إذا لم يقوم « بالعمل الاجباري » ، الذي يُفضي به الى موت قريبٍ عزيزٍ عليه .

مثال ذلك الرجل الذي يشعر مجبراً ان عليه ان يلبس جميع الصور التي يراها في بيت غريب دخله ، فاذا لم يقوم بهذا العمل الرمزي ، ظل يعيش في عذاب مستمر محاذراً ان يقضي على حياة صاحب البيت بسبب خطأه هذا .

واليك بعض الامثلة المقتبسة من الحياة اليومية تبين لنا ان الرجل العادي عرضة لمثل هذا الاجبار وان كلاً منا يرزح تحت تأثير هذه السلطة السرية الغاشمة الا وهي « الاعمال الاجبارية » و « المزيجات » ، وليس هناك فرق جوهري بين الصحة والمرض بل بينهما الوفاة من درجات الانتقال ، ومن الصعب عادة ان تشير الى حيث تنتهي الصحة

ويبتدىء المرض . وكل من ركب منا دراجة او كل راجل لا بد ان يكون قد اختبر تلك الرغبة الغريزية التي تدفعه الى الاشتراك في السباق مع اشخاص مجهولين لديه ، تلك الرغبة التي تدفعك الى ان لا يسبقك من يمشي خلفك ، ثم تبذل كل جهد دون ان تشعر لتلحق بمن هو قدامك . وقد وصف لي احد المشاهدين الاذكياء الذين درسوا هذه الاعمال الاجبارية ، التي تقع كل يوم ، هذا النوع من السباق الذي لا هدف له قال :

« انا في شارع « ماريا هلفر » واريد ان اصل الى دار التمثيل الشعبي الالماني في الوقت المعين . غير ان وقي قصير فاقف في الشارع وانظر امامي فاختر من بين الجموع في الشارع إما شبحاً طويلاً — او امرأة يزهر الريش قبعتها او رجلاً يلبس قبعة رسمية . واستعد لالحق به ، غير ان منافسي يسبقني بما يقرب من عشرين الى خمسين خطوة ، فاقول لنفسى « يجب ان ألحق به عند وصولي الى الفناء الرابع من المكان الذي انا واقف عنده او من عطفة الشارع الاولى . وابتدىء بالمشي فاذا قاربت ان ألحق بمنافسي وادركت انني سألحق به قبل ان اصل الى الهدف ، الذي وضعته نصب عيني ، ابطىء في خطواتي فألحق به في اللحظة الاخيرة ، وهكذا افوز عليه وكثيراً ما تمنعني هذه المحاولات من الوصول الى غايتي ، الا وهي الوصول الى دار التمثيل باسرع ما يمكنني . ولا تقف المسألة عند هذا الحد بل قد تحدث عراقل غير منتظرة اثناء السباق . فقد يكون منافسي (وقحاً) فيقف متفرجاً على شرفة احد المحازن فافعل مثله لارى ما ينظر اليه هذا « الابله » وانتظر

قليلا حتى يعاود سيره ، وأترك له — تكراً مني — مجالا امامي ، كي ألحق به بالتأكيد قبل وصولي الهدف الذي وضعته امامي . غير انه إذا اطال الانتظار ، اعتبرت تأخيره انتصاراً لي فأقرر ان اترك المقهور وشأنه واختار لي فريسة جديدة تبدو لي من بعيد ، واعيد هذه اللعبة بشيء من التغيير فاغضب حقاً إذا وجدت منافسي يدخل بيتاً « بقصد الزيارة » قبل وصوله الهدف المعين ، فأخذ في العدو وراءه ، باحثاً مستقصياً بل قد اطلّ على داخل الدار متعجباً من السبب الذي دعاه الى الدخول هناك .

لقد اخترت هذا المثال من بين كثير من مثل هذه التوافه التي بعث بها إلي مراسلي ولأنها تصح كثال ، ولأن هذا السباق مع الاشخاص المجهولين ، ربما كان أكثر هذه البواعث الاجبارية شيوعاً .

ولكي نفهم هذه « الاعمال الاجبارية » علينا ان ندرك انها إنما توجد في الانسان الخيالي اما الواقعي الذي لا يؤمن إلا بالحقائق الجافة فقلما يرضخ لمثل هذه البواعث . فالشارع في نظره ليس سوى شارع ، وهو لا يعبأ بالغريب بل لا يهتم به . اما ذو الخيال فيتصف بميزة خاصة ، ذلك انه يمثل ابدأ فصلاً من رواية تمثيلية . وكل شيء في نظره رمزي . بل هو دائماً يسعى الى ان يعترف به الناس او الى ان يمتلك قوة . وله هدف يضعه امامه ويسائل نفسه هل يصله يوماً ما ، فيصبح الشارع عنده رمزاً لطريق الحياة — ويدفعه الطموح الى ان يعرف موقعه بالنسبة الى غيره من الناس . ما هو عدد الذين يفوقونه قوة وشأناً ؟ ومن منهم بلغ مرتبة اعظم مما بلغ هو ؟ هكذا يصبح

الشارع اختباراً لقواه وللشعور بذاتيته فيتمكن بشيء بسيط من الجهد في تخيُّله ان يحلب لنفسه اعظم الانتصارات فاذا سبقه اخوانه في المهنة في العمل ، او إذا لم يرتح الى ما قد وصل اليه ، او إذا وجد الهدف البعيد لا تصل اليه قواه ، شعر بمذلة بل اخذ يشك في نفسه ، ولكي يرضي شعوره بالمذلة والضعفة يرتب سباقاً مع شخص غريب ، يمنحه امتيازاً على نفسه . فيتذوق لذة الانتصار والغلبة مقدماً . ويذل خصمه . وينعته « بالثقل » و « بالقليل الذوق » . وينزل مرتبته الى مستوى « البلهاء » . ثم يتنازل لان بهم بما يحدث لهذا الغريب وبما يشاهده في شرفة المخازن ، ويصحب هذا الاهتمام دائماً شعور بالعطف عليه ، وحس بالعظمة المنتصرة . فاذا لحق بمنافسه عند الفئار الرابع ، التذُّ بهذا النصر البخس وهو نصر لا يدري المغلوب عنه شيئاً . غير ان هذا النصر هو رمز لاتتصاراته في المستقبل ، فكما انتصر على هذا الغريب — رجلاً كان ام امرأة — فسوف ينتصر في النهاية على اخوانه في العمل وعلى اصدقائه ومعارفه ! انه لم يصل بعد الى هدفه ، ولم ذلك ؟ هل يشعر بنقص في مقدرته ؟ بالعكس انه يشعر بفيض في قواه ومقدرته غير انه يعدّ عدته لكي ينتصر على جميع الناس وجميع الاشياء في اللحظة الاخيرة .

ارى من الخطأ ان استمر في التحليل فأتساءل لماذا اخترت مثل السير الى دار التمثيل هذه ؟ هل كان ذلك المتسابق يذهب الى دار التمثيل لمشاهدة التمثيل للمرة الاولى ؟ هل انتهى بذاته من تأليف رواية ؟ ام هل اشغل ذهنه بكتابة رواية تخلد اسمه وترفعه عن مستوى

المتاعب والمشاكل . الا يستطيع وهو الرجل الذكي ان يتم ما وجده كثيرون غيره من الاغنياء المائعين سهلاً وميسوراً ؟

انا نرى ان وراء هذه الاعمال الاجبارية التي تظهر عديمة الضرر مأساة تنبئ عن طموح لا يزال غير مشبع . فان ذلك الرجل قد امتلأ قلبه شعوراً لم يدفع ثمنه غالياً عن قيمة نفسه قبل ان يصل الى دار التمثيل ، حيث يكون انتصار مؤلف الرواية صدمة له . فيدخل دار التمثيل ومثله مثل المنتصر الذي توج رأسه بالغار ، يحمل الجائزة الاولى في السباق الاولمبي في شارع (ماريا هلفر) وهو تحت تأثير نشوة (ذاتيته) مطمئناً الى جنونه الذاتي .

وما اقصر ما تظهر له الطريق . ان ربع الساعة تلك في دار تمثيله الوهمية ، جعلت السباق في الشارع لا يدوم اكثر من دقيقة واحدة . لقد كانت امامه عقبات كثيرة يتحتم عليه اجتيازها واناسا كثيرين يجب ان يسبقهم قبل ان يصل الى دار التمثيل .

وقد يكون عمل غيره سهلاً اما هو فيشبه (دامون) في رواية (برغشافت) لشيلى إذ عليه ان يختار عقبات وحواجز تكاد تكون غير قابلة الاجتياز ، بل عليه ان يقاوم تيارات شديدة ، وعصابات من الاشقياء ، قبل ان يصل الى المسرح . لقد دفع ثمن سروره غالياً ولهذا زاد في قيمة هذا السرور واغلاؤه . واخيراً علينا ان نذكر حقيقة بيكولوجية هامة قبل ان نختم هذا البحث وهي ان هناك اناساً يتألمون ، من الخوف من البطالة ، فلا بد من اشغالهم دائماً بعمل من الاعمال . يقرأون وهم في القطار او اثناء سيرهم ويحيكون مناظر وهمية في اذهانهم او

يتعلقون ابدأ بعملهم . ولكن هلا كفّوا عن التفكير ؟ ان مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يخلّوا وافكارهم او ان يذهبوا الى نزهة دون رفيق . يتسلط عليهم ، ابدأ شعور بالخوف من الفراغ .

ان مثل هؤلاء الذين يفرون من انفسهم هم الذين يتعرضون
 « للاعمال الاجبارية » ، ذلك لانهم في شغل شاغل دائماً ، بل اشغل من
 شاغل . مثل هؤلاء يملكون دور تمثيلهم الخاصة إما في الشارع او في
 البيت . وسواء استمدوا ألماً ام سروراً منها فامر لا كبير شأن له .
 لان الغاية تكون قد تمت عندهم إذا اشغل الوقت بالنزاع مع انفسهم
 او مع خصم خيالي ومرت الوقت سراعاً بحيث يمنعون من الاعتراف
 بالحقيقة الجافة . ومثل هؤلاء لا يعرفون الحقيقة كلها عن انفسهم .
 فان مثل هذه « المزيجات » ، و « الاعمال الاجبارية » ، مثلاً تتملك ذهن
 امرأة غير مسرورة بزواجها ، بقيت احلام حبها السرية غير متحققة .
 مثل هذه تمثل دوراً هزلياً لامرأة تزوجت زواجا سعيداً فوقعت على
 خير الازواج . تشكو هذه من اجبار يشغلها من الصباح حتى المساء
 فهي ابدأ تفتش بيتها حتى لا يعلو الغبار اية زاوية فيه ، وبحيث يكون
 كل شي . في محله . بل تلمس كل شي . لترى ان كان كل شي . قد وضع
 في مكانه حقيقة .

لا احاول ان افسر هذه « الاعمال الاجبارية » ، غير انها بالتأكيد
 تخدم غاية واحدة الا وهي ان ليس في النهار بطوله لحظة خالية . او
 خذ مثلاً ، القاضي الذي يتعذب وتناولوه الظنون بعد كل جلسة ، في
 صحة القرار الذي اصدره ، إذ يشعر دائماً ان لكل حق وجهتين ، فيظل

يردد في ذهنه براهين الطرفين المتخاصمين في القضية ، ما لها وما عليها غير متلفت الى القوة « المعكوسة المقهورة » التي تهدد توازنه دائماً . وتبدو جميع عواطفه كأنها قد تحولت الى « تأملات عزيزة » احتضنها بالرغم منه .

عفواً لقد ضللنا الطريق وخرجنا عن موضوعنا « سباق الشوارع » ! لقد وجدنا الشهوات القبيحة التي تحتفي وراء هذا السباق وهي الحسد والطموح وسوء القصد ، والفشار والجنون الذاتي والعمى المقصود والتثيل ، وتربض وراء جميع هذه نفس مشتتة قلقة . فهل لنا بعد هذا ان نتكلم عن « الاعمال الاجبارية » في الرجل العادي غير الشاذ ؟ ماذا نقول في حالة الرجل المريض ؟ ليس الجواب على هذا صعباً . فجميع الاشخاص العاديين الاصحاء هم من ناحية ما ، مرضى كما ان جميع المرضى هم من ناحية ما ، اصحاء . فالفكر لم يكن يعمل في سباق ربع الساعة في الشارع . تصور الان ان تدوم هذه الحالة فتكون لديك صورة عن الجنون . ما الفرق بينهما يا ترى ؟ الفرق هو اننا نحن الاصحاء نكتشف طريقنا ونحن عائدون الى ملكة الصحة العادية .

ان الجنون يمد حدود العالم الى ما لا نهاية . فيسمح لنا ان نحتفل باتصارات على خصوم اشداء ، ويقودنا من ضيق الحياة اليومية القاهرة الى العلو الشاهق ، ويدخلنا في تجارب تتعطش اليها . وحاجاتنا تتلخص في ان نحبي وان نسعى وان نصعد وان نهبط وان

نتنصر وان تغلب وان نحب وان نكره . ويكفيانا ان نصلها ولو في
 الوهم او بان نصبح دون كيشوت (١) الشوارع . نترك وراءنا
 (سانكو پانزا الجريح) ين من حماقتنا — التي قد تمتل فيما بعد اعلى
 ما فصل اليه من الحكمة .



(١) بطل رواية هزلية الفها ميغل دي سرفانت بعد خلاصه من الاسر
 في الجزائر سنة (١٥٨٠) وكتب روايته سنة ١٦٠٥ واتمها سنة ١٦١٤ .
 ملؤها السخرية على تبجح الفروسية في القرون الوسطى .

الفصل السابع

عذاب الاختيار

يحمد القارىء فيما يلي من المراسلة مثالا جيدا لعادة التردد عند بعض النساء لسبب من الاسباب المجهولة ، فقد كتبت احدى السيدات الى الطبيب الكتاب الآتي :-

« عزيزي الدكتور

انا امرأة تامة الصحة ، مسرورة بزواجي ، قانعة تمام القناعة بما قسم لي ، ولي من زوجي ولدان وليس لي ما اشكو منه . غير انني اشكو نوعا من القلق ، لا ينقص علي عيشي تماما إلا انه يجعلها دون ريب صعبة . ومع انني نشيطة حازمة ، اكاد لا استطيع ان اشترى اي قطعة من الالبسة لي . وربما استطعت ان تزداد علما بحالتي إن اعدت عليك حوادث الاسابيع الماضية . انك بلا ريب تعلم ان المرأة التي نهتم بمظهرها الشخصي ، تعالج ما يتعلق به بتفكير معقول وبعد نظر . واني ارى صاحبائي عادة ينظرون الى ما في المخازن ، ثم ينتخبين بائعة برانيط من بين كثيرات ، ولا يمضي وقت حتى يكتفين ويقتنعن بما اخترنه . غير ان بعضهن يترددن قليلا ، ويحكمن عقولهن ، وربما اعدن البرانيط التي اخترنها واخذن غيرها . اما انا فما ينتابني قبل اعطاء الحكم ، لا يجوز ان يعتبر اختياراً ، بل هو مرض يشبه الحمى .

فانتي اقلق عند بداية اعطاء الحكم واعرف ان هناك عذاباً اعظم ينتظرني فلا املك ان اقول هل اشترى ؟ ام لا اشترى ؟ واخيراً اذهب الى بائعة البرانيط . ما اسعدني لو تمكنت ولو مرة من ان ارى برنيطة فاقول لنفسى « اريد هذه ولا اريد سواها ، ولكنني اجد دائماً برنيطتين او ثلاثاً تعجبني .

« فاذا اخذت البرنيطة التي اخترتها في البدء الى بيتي ، ونظرت الى نفسي في المرأة ، تصورت ان الثانية ربما كانت تناسبني اكثر . وإذا عزمت على شراء الثانية تأسفت حالاً لانني لم اختر الاولى . وهكذا كأن لكل برنيطة ميزة خاصة . وارجع انك قد تنصحنى بان اترك زوجي يختار لي في مثل هذه الاحوال الحافلة بالشكوك ولكن هذا هو الامر الغريب ، فان قرار زوجي لا يرضيني . فاقول لنفسى « ان ذوق المرأة هو الذي يعتمد عليه في مثل هذه الامور . » فماذا اصنع ؟ هل اطلب اذن ، رأي صديقتي ؟ ان هذا لن يكون ابداً . اية صديقة من صديقتي منزهة كل النزاهة حتى ترضى ان تراني اكثر جاذبية منها ؟ وعلى كل تراني اراجع عن ان اطلب مساعدتهن في اختياري واذن فلم يبق لي من يكلمني ويرغمني على الاختيار سوى امي . فهي التي يجب ان ترافقني وتلفظ كلمتها الاخيرة . وهكذا فان قرارها يكون نهائياً عندي . وما يصدق على برانيطي يصدق ايضاً على جميع مشتريائي التي تخصني شخصياً اما في ما يتعلق باولادي ، او زوجي او ما اقدمه من الهدايا لاصدقائي فانني استطيع ان اختار مستقلة دون تذبذب واعتقد

ان اختياري فيه شيء من الذوق . اما إذا كان الامر يتعلق بنفسى ،
فانا مشتتة كل التشتيت .

« انا عبدة امى اسلك معها كما لو كنت بنتاً صغيرة تحتاج الى حماية
والدتها . وكم حاولت ان اخلص من استبدادها ؟ ولكن محاولاتي جميعها
فشلت فشلاً تاماً ، ولهذا أصبحت افضل ان اصطحب والدنى معى
عندما اذهب لشراء حاجاتى فى السوق . ويا لهول المصيبة عندما افكر
بالوقت الذى تمتنع فيه والدنى عن مرافقتى . لا استطيع ان اتحمل
التفكير فى موتها الا انى اعتقد انى لا استطيع حينئذ ان اصل الى
قرار جازم بل اظل اتردد بين برنيطتين ، ومودتين ، وخياطتين .

« ان من السخف ان ازججك بامور تافهة كهذه ولكننى احب ان
اعرف كيف يتصل شخص تام العقل فى وجهة من وجهات الحياة
بالجنون او التطرف .

فاجابها الطبيب بما يأتى :

سيدنى

« ان الحالة التى تصفيتها وصفاً متقناً معلومة لى فانها تمثل امثلة
من « الاعمال الاجبارية » التى تتألم منها المرأة الحديثة . فالنساء
يخترن ويخترن ولكنهن يعجزن عن الوصول الى قرار . هذه الحالة
تحدث فى انواع لا نحصى . فهناك المرأة التى تتذبذب مدة طويلة الى
ان ترضخ اخيراً ، فتقرر بشجاعة شراء آخر سلعة تعرض عليها .
وهناك السيدة التى ترجع فى اليوم التالى فترى خطأ فى شرائها فى اليوم

الاول فتبدله . وهناك الشكاكة التي ترافقها دائماً صديقتها او والدتها لانها لا تستطيع ان تقرر لنفسها ، وهناك اخيراً ، المريضة المتألمة ، التي تتأسف على ثرائها بعد وقوع البيع ، ولكن حياءها يمنعها من التبديل ، ولكي افسر لك هذا المظهر الغريب ، الذي هو جزء من مرض يعتبره البسيكو انا ليتيقي « ضعفاً في الارادة » ، لا بد لي من ان اشرح لك ذلك شرحاً اوفى وان افهمك المظهر الذي يسمى « بالاعمال المستعاض بها » ، فما « هو العمل المستعاض به ؟ » خذي هذه الامثلة :

« يغضب احدهم ، فيود ان يجازي خصمه ، ويلاكمه ، ولكنه يكتفي بان يكسر صحناً في بيته فيجعل منه مئة جزء . ورجل آخر فيه ميول اجرامية لقتل نفس ، يصبح صياداً متحمساً ، يصطاد حيواناً عجيباً كل اسبوع . او تصوري رجلاً فيه غرائز (دون جوان (١)) يجمع معرضاً لصور النساء الجميلة ليعبر بها عن انتصاراته بين النساء الحسان . اي يصبح عاشقاً للصور ؟ وترينه يجتاز جميع ادوار الحب قبل ان يقتني الصورة . ويشعر في نفسه بطلا متصراً عندما تعلق الصورة على جدران بيته ، وهكذا يتمكن من اجتياز نوبات شهر العسل الاولى ؟

« وانت يا سيدتي ، ما قلقك في شرائك إلا ضرب من « الاعمال المستعاض بها » ان هي إلا رموز لعقد بيع آخر لا تستطيعين الآن ان تلخيه . وانك لتسأليني الآن ما هو هذا العقد الذي اشير اليه .

(١) شخصية روائية خيالية ذات ميول معكوسة

اراك اجبتي بنفسك . حقاً لقد قلت لي انك سعيدة في زواجك ، ولكن قلت في الوقت نفسه ان قرار زوجك في مشترياتك لا تقيمين له وزناً . ان هذه خيانة نفسية لان المرأة التي تكون راضية ومسرورة بزواجها انما ترغب في ان يرضي زوجها — هذا على الاقل ما تؤكد به هي دائماً لنفسها ولغيرها — وفي مثل هذه الاحوال تترك زوجها يقرر لها . وبما انك لا تفعلين ذلك يدلي هذا على ان هناك بعض الخطأ . ان التأثير الذي تختبرينه عند اختيارك برنيطتين لا يرجع الى السبب الذي يترامى لك بل مصدره شيء آخر . هل اخترت اختياراً خاطئاً يوماً من الايام ؟ ربما كان ذلك اهم اختيار وهو اختيارك زوجك . وان احترامك الآن لقرار امك يدعوني الى ان اشك في ان اختيارك الاول كان مناقضاً لارادة والدتك .

• وهناك تفسير آخر ، قد يوضح لك عملك الاضطرابي هذا . لا بد انك تعرفين ماذا اعني « بالميل للحل والرفض » ، فان عصبي المزاج (النفاريز) عادة يحلون في تخيلهم ، الحقائق الراهنة . فانت تحلين زواجك في شرائك البرنيطة وتسلكين كما لو كنت لا تزالين عذراء ، في حالة تمكّنك من اختيار آخر . فتصبح البرنيطة عندك رمزاً للزوج (وهي بالاكثر رمز الزوج في الاحلام) وانك لا تزالين حرة وانت على اهبة اختيار زوج . ولكنك هذه المرة لا تريد ان تختاريه وحدك ، لان صوت والدتك المتسلط الذي اهملته في المرة الاولى لاندفاعك في حبك يجب ان تصغي اليه الآن . ولهذا تتركين الحكم لوالدتك وهكذا تعترفين بانه كان افضل ان تصغي الى والدتك من

قبل . وانت الآن تعيدن اهم دور من ادوار حياتك — وهو اختيار الزوج . تعيدن هذا الدور المرة بعد المرة كما لو كان باستطاعتك ان تغيري الحقيقة الجافة القاسية . فانت إذن تحلين عقد خطبتك وزواجك بل وولديك اللذين ربما كانا السبب لبقاء هذه المأساة . مأساة في التخيل فقط . انك تسلكين كما لو كنت تختارين الآن من جديد وتعترفين لو الدتك بالحقوق التي انكرتها في الماضي . فانت إذاً تلعبين كل شيء .

« ومع هذا فهذه المأساة تمثل لاشعوريا (اي في عقلك الباطني) انك لا تريدن ان تعلبي انك غير مسرورة ، فان لك اسراراً نكتمينها حتى عن نفسك ، وانت مجبرة على ان تبوحى بافكارك السرية في اعمال رمزية . انت إذن تتألمين فان عذاب قلبك الآن معناه في الحقيقة هذا : « يا ليتني سمعت نصائح والدتي وتركتها تختار لي ، وان ترددك الحالي هو قصاص لقرارك الطائش الاول . »

« ربما استنتجت خطأ وانت من بين النساء السعيدات القلائل اللواتي هن مسرورات حقيقة عندما يصرحن بذلك . لان الفرد منا يشعر بانه يجب ان يكون مسروراً . ومن المؤسف ان اختباري يدلني على ان الناس السعداء لا يحتاجون الى تمثيل مهازل (روايات مضحكة) لانفسهم . »

فأجابته :

عزيزي الدكتور

« اعترف انك اصبت في حدسك في نقطة واحدة فقط . لقد

تزوجت بالرغم من مقاومة والدتي الشديدة ولكنني لن اعترف بانني
لا احبه وبانني غير مسرورة . انني عصبية المزاج فقط وهذا جميع ما
اشكو منه . اشكو من نوبات بكاء . وانحطاط وضعف عجيب في
ارادتي . وقد عزمت الآن على ان اذهب الى مصحّة معتقدة انني
سأرجع مالكة صحيّتي فأكون أسعد النساء . غير انني اتردد بين ثلاثة
مصحات ، وقد أشير عليّ بالثلاثة . اما زوجي فيعتقد انني يجب ان
اذهب الى مصحّة « ب » ، ووالدتي تفضل مصحّة « ا » وصديقتي مصحّة
« س » ، على انني ارجع انني سأختار مصحّة « ا » لان الهواء هناك
يلائمني ،

ومرت ثلاث سنوات .

فكتبت الى الطبيب :-

« عزيزي الدكتور

لقد كنت مصيبا في رأيك بعد كل هذا . ذهبت الى المصحات
الثلاثة ولم استفد من احدها . ولكنني انفصلت عن زوجي الآن وانا
حرة مرة ثانية - وتصور - انني تخلصت من عذابي جميعه . فاني
اختر برانيطي مع زوجي المقبل ، الذي يملك ذوقا ممتازا عجيبا ،
وارجو ان لا تنسب ذلك الى نقص في ذوقي .

هامش :

« ارجح ان هناك نساء كثيرات غير راضيات عن اختيارهن الاول

فقد شاهدت اليوم ما يقرب من اثنتي عشرة امرأة في مخزن بائعة البرانيط وكلهن ترددن في الاختيار .

هل الأزواج الأول غير مرضين الى هذه الدرجة ، ام نحن كلنا عُمي لا نبصر

ان والدتي تعتقد ان البنات لو اتبعن نصيحة امهاتهن لوفرن على انفسهن وعلى غيرهن تعباً كثيراً . واكثر الامهات يقلن قولها . غير انني اعرف سيدات اصبحن تاعسات لا تباعهن نصائح امهاتهن . ولكنهن يشترين برانيطهن دون مراجعة والداتهن . لم اكن لاتصور ان بائعة البرانيط هي « الموحي الجديد للتزوجين ... »



الفصل الثامن

الخوف من طيب الاسنان

إن إيقاف ألم ضرس ، او نزعه ولو لم يرافقه ألم ، لا يمكن ان ينظر اليهما كمسرة من اعظم مسرات الحياة . غير ان هناك كثيرين تتعاطم قوة الحس في افواههم الى درجة تصبح معها مرضاً ، بل يصبح الخوف من طيب الاسنان خوفاً مرضياً يصعب علينا فهمه وتعليله وهناك بعض النساء العصبيات اللواتي يفضلن ان يحتزن دور الوضع على ان يخلع احد اضراسهن وقد عرف كاتب هذه السطور رجالاً خاضوا غمار الحرب ومع هذا يرتجفون إذا ارادوا ان يراجعوا طبيب اسنان . وكثير من الرجال يفضل ان يتحمل آلام اشهر ليل نهار على ان يلجأ الى الطريقة الوحيدة لعلاج الضرس الاكيد وهو مراجعة الطبيب .

ويملك هؤلاء الافراد الحساسون جداً ، اعصاباً حساسة الى درجة شاذة في ناحية من نواحي افواههم . وإذا بحثنا في الامر رأينا ان الفم عند مثل هؤلاء يشغل مقاما عظيماً في نظرهم ، فاما ان يكونوا شرهين او معتدلين في طعامهم جداً او حساسين كثيراً في ناحية من نواحي اذواقهم . واما ان يحبوا التقبيل ، او يروه امراً لا يستطيعون تحمله ، فكان فهم يمثل « منطقة حب » فيصبح الفم عندهم إذا جاز التشبيه آلة

من آلات الحب . . وهناك روابط خفية تربط هذا الخوف المبالغ فيه بالبواغث المرضية ، سنبحث عن مظاهرها وآثارها فيما بعد .

حدثني احد اطباء الامراض العصبية بما يأتي ، والحادثة نرينا ان الخوف من طبيب الاسنان ليس إلا خوفاً مرضياً :

قال : « ان رجلاً في الثامنة والعشرين من عمره تام الصحة كان يشكو من ألم في ضرسه . فقالت له والدته يوماً « يجب ان تذهب الى طبيب الاسنان غداً » وبعد ان قضى ليلة لم ينام فيها ، وعد ان يرجع طبيباً كان قد عالجته في الماضي . وفي اليوم التالي ذهب الى الطبيب ، ففحص هذا الضرس ، واخبره انه لا بد من خلعه قائلاً : خير لك ان نخلعه الآن دون ألم ، فتولى الرجل ذعراً وتهيجاً لم يتمكن الطبيب من تعليله . فاجاب : « يجب ان اخلعه حالا ؟ اليس هناك وسيلة اخرى ، اصحيح اني يجب ان اخلعه ؟ »

فكرر طبيب الاسنان نصيحته بشدة . فسأل الرجل عن الطريقة التي يتم فيها الخلع قائلاً : الا تكون وخزة الابرة في حقنة الكوكئين مؤلمة جداً ؟ اليس الاوفق ان يستعمل غاز ؟

فرضي الطبيب بعد ان عيل صبره ان يخلع الضرس باستعمال مخدر فتولى الشاب قلق وتردد وعذاب . واخيراً وجد حلاً للسألة فخطب الطبيب قائلاً « عفواً اني شديد التهيج اليوم ، لاتي لم انم لحظة ليلة البارحة . وفضل ان اتحمل ألم ليلة اخرى واعود غداً . فاعطني الآن ما يساعد على قتل العصب ، او ما يوقف الألم على الاقل . »

اما طبيب الاسنان الذي كان يعرف هذا النوع من زبائنه فانه لى طلبه . وبعد ان اعتذر صاحبنا بكلمات متقطعة عن اخذه كثيراً من وقت الطبيب مع انه كان قد تخلص من عذاب لا يحتمل ترك منطقة الخطر ، وتولاه حينئذ تهيج يصعب وصفه ، ولا يتناسب مع طبيعة هذه المسألة الطفيفة وخفق قلبه فكاد يختنق ، وارتجف بشدة ، فعذر عليه ان يعود الى بيته ماشياً . غير ان كل هذا لم يكن لىساوي شيئاً بالنسبة الى المأساة التي مثلها امام والدته . فانه احجم عن الذهاب الى مكتبه لىهدى روعه قليلاً . والثالث عليه الامر فلم يستطع التفكير في عمله . واخذ يتردد على اصدقائه ويطلب منهم عناوين اطباء اسنان من الذين عرفوا باتباع طريقة يتمكنون بها من خلع الاسنان دون ألم او من الذين اشتهروا بالمقدرة الممتازة التي يقدرها الناس بالرغم من انها خرافية .

ولقد مرت على صاحبنا ليلة لم يتمكن فيها من النوم ، من اثر الالم والتهيج . ولما كان اليوم الثاني ازداد كابوسه فلم يستطع بالطبع ان يزاول عمله في مكتبه ، وفقد قابلية الطعام واخذت تظهر عليه علامات المرض فعلاً ، ولم يكن لىستطيع ان يفكر في غير طبيب الاسنان وفي خلعه ضرسه ، ولكنه عجز عن الوصول الى قرار جازم . واجتازت والدته دور تضحية حقيقية (لا يستطيع ان يفهم ويقدر مثل هذه الآلام سوى امهات مثل هؤلاء الابناء) وجاء طبيب العائلة ، وامر باستعمال املاح البروم المسكنة ووعظ المريض عظة طويلة ، وطمأنه بانه لىس هناك ألم من خلع ضرسه ، وتبرع بان يرافقه الى طبيب الاسنان .

وبحث في الحملة بحثاً طويلاً ، كأن الذهاب الى طبيب الاسنان مشروع خطر ونظر فيما يجب اتباعه للوصول الى طبيب الاسنان ، مدة ساعات .

وفي اليوم الثاني عرف الطبيب انه لم يعد يستطيع ان يعمل امراً امام مخاوف المريض . وساروا معا الى طبيب الاسنان الذي كان ينتظر مريضه مستعداً تمام الاستعداد لتخفيف آلامه . ولكن بطلنا التمس ان يسمح له بان يتمشى امام العيادة ثم يعود دون تأخير . فقبلت والدته وطبيب العائلة طلبه وتمشى المريض مسرعاً امام العيادة . واخذ يتعلل بشراء لفافة تبغ من دكان في الجهة الثانية ، وانه لن يتأخر دقيقة . وانتظرت والدته والطبيب طويلاً بحيث خامرتهما الريبة في ان المريض اخذ يتملص .

وازدادت حالته سوءاً حتى لم يكن هناك من ريب بانه اصبح يشكو من اضطراب عصبي حقيقي . وفقد صاحبنا المريض مقدرته على النوم ، بل فقد قابليته للطعام ايضاً ، واصبح قلقاً يائساً لا يملك صبراً وصار يفكر في الانتحار واضطر الى دخول احدى المصحات ولم يعد يستطيع عملاً بالمرّة .

واخيراً بعد نزاع شديد راجع كاتب هذه السطور . ورغب الى في ان اتومه لكي تطرد ، الفكرة الشيطانية ، من رأسه ويحل محلها انتزاع ضرره . فرأيت حالاً ان هذه العاطفة القوية بشأن ضرره نتجت عن اسباب اشد تعمقاً وان هذا الخوف من طبيب الاسنان لم يكن سوى مظهر لخوف اشد ، له علاقة بحياته جميعها . ففحصت افكاره باهتمام وحاولت ان اعرف ما يقلقه ويزعجه مما لم يكن له علاقة

بطبيب الاسنان ؟ فاخذت بالطبع جواباً كنت انتظره . ما اسعدني ان استطعت ان انزع ذلك الضرر . اتى اعيش مع والدتي واخشي انها هي التي تضرني كثيراً ولي خطية اعبدها . .

فاجبت . هل لك خطية . ومتى تنتظر ان تتزوج ، فاجاب : « هذا هو السر لقد كان يجب ان ازوج منذ ثلاث سنوات ولكن الحرب العامة كانت قد اشتعلت وانت تعلم ان الانسان لا يستطيع ان يتزوج اثناء الحرب . »

— « وماذا تقول خطيبتك في امر خوفك من طبيب الاسنان ؟ »
 — « انها تظن ان هذا الخوف لا اساس له كما تعتقد ان بي كثيراً من السخف غير هذا ، وذلك لانها لا تفهمي . اني قلما اراها . ولا اذهب اليها سوى مرتين كل اسبوع . »
 — « ولماذا هذا التشديد ؟ »

— « لان هذه هي الوسيلة الوحيدة لكي تبقى علاقاتنا خالية من كل البواعث غير النقية — اي طاهرة — اثناء فترة الانتظار الطويلة . »
 ولقد كان اعترافه هذا كافياً لي . ان الحب الشديد الذي يملك نفس المحب لا يمكن ان يعنو لحدود كهذه (١) او لتبرير نفسي كهذه . واصبح الآن من المحقق ان مريضنا كان في حالة نزاع صعبة جداً . وبعد ان باحثته ازداد يقيني في المسألة .

(١) اي توهمه ان قربه من خطيبته يؤول الى علاقات غير شريفة .

كان صاحبنا يشكو من حصر افكاره وتثبيتها في والدته ولم يكن ليتصور الحياة بدونها ، وكانت هي سبب خرابه هذا . كان خائفاً من الزواج ولكنه كان يخاف ايضاً من فسخ خطبته . كان يعرف ان خطيبته كانت تحبه حباً جماً ، وانها تضحي حياتها من اجله لو فقدته .

وفيما كنت اراجع حالته في ذهني اكمل المريض كلامه . فذكر انه اضطرب كثيراً لحلم مزعج كان قد حلمه في الليلة الماضية ولم يستطع تعليله وظهر له نبوءة سوء . حلم انه كان عند طبيب الاسنان الذي خلع له ضرسه دون ألم . ثم اخذ الضرس ووضعه في علبة فيها صورة خطيبته ووقعت الصورة واختفت في الارض .

فهذا الحلم اضاع صوابه ، لقد كان الضرس رمزاً لحبيته وكان خلعه رمزاً للانفصال ومعنى هذا الانفصال عن عروسه ، الموت . فكان ترده في الذهاب الى طبيب الاسنان عملاً قام مقام ترده نحو عروسه .

وفي مثل هذه الاحوال لا ينفع سوى النظر الى المستقبل نظراً واضحاً . ولم تمض اسابيع حتى راجع صاحبنا الطبيب واستغرب هذا موافقته على خلع ضرسه . ولم تكن امه ترافقه هذه المرة ، بل رافقته صبية شقراء نحيلة قدمها الى الطبيب كخطيبته .

وبعد ان خلع الضرس بسرعة دون ألم قال الطبيب : « كان يجب ان يخطر ببالك هذا الفكر قبلاً . ان الحب يسهل كل الاعمال ، فانك من اجل عروسك تحملت الالم كبطل . »

غير ان المريض الذي كان ينظر الى الضرس قال باستغراب
لخطيبته : « ما اشد عجي . ان هذا الضرس لا يشبهك بالمرّة . »

فكان جوابها اشد دهشة عند طبيب الاسنان « نعم انه يشبهني فله
جذر قوي ثابت . »

وبعد اسبوع سافر الزوجان الى (سمرنج) . وتركاهما والدة
في البيت ، تذرف دموع الفرح والحزن ...



الفصل التاسع

المتأخرون أبداً

لكل منا تقريباً هفوات خاصة به يرتكبها دائماً ويعيدها بالرغم من نتائجها المسكدة ، وبالرغم من توبتنا واصرارنا على عدم تكرارها فكل رسم مدرسي ندفعه الى الحياة (وهي معلمنا الاكبر) يذهب عبثاً. ونرانا في احوالنا نعود فنرتكب هفواتنا الماضية .

مرّ وقت طويل على علماء الطب البسيكولوجيين حتى توصلوا الى الاهتمام بهذه الشواذ البسيكولوجية التي نشاهدها عند الناس الاصحاء والى اعتبارها عوامل قوية قاهرة في الحياة. وتشتمل هذه الشواذ على الاعمال الاجبارية التي يقوم بها المرء مخالفاً فيها ارادته وتفكيره وما عزم على القيام به ، وهي نتيجة عواطف قوية تنصرف فيها القوى البسيكولوجية على قوى الفكر .

بعض هذه الاعمال الاجبارية الشائعة هي وصول المرء متأخراً ، وهي حالة نراها في بعض الناس . نعرف هذا النوع من الناس في دور التمثيل ونعرفهم في الولائم والدعوات — اولئك المتأخرين المزعجين ، الذين يضطر الواحد الى الوقوف لكي يسهل لهم المرور فيخسر دقيقة لذينة ويعكّر مزاجه . ويتبع دخولهم ، ازعاج لغيرهم ، وهممة ودمدمة في المكان ، ويرمق الزوج امرأته المتأخرة شزراً على غير

جدوى. على ان الزوجة تكرر العمل ذاته في المرة الثانية . وتجد دائماً عذراً لحضورها متأخرة، اقول الزوجة لان النساء هن اللواتي يشكين عادة من هذا الاجبار القتال ، على الحضور متأخرات جداً .

يحد هؤلاء لانفسهن عذراً دائماً . فاذا كانوا في المدينة انتحلن اعداراً منها ، ذلك الترامواي اللعين الذي كان مكتظاً بالناس او الذي تعطلت آلاته في الطريق ، او الذي تأخر عن مواعده « نصف ساعة » فاغضب الركاب . . ولكن هناك اسباباً اخرى منها ان المفتاح فقد ولم يعثر عليه ، او ان زائراً غير متظر قدم ، او قد يتذكرن (وهن في الشارع) ان المفتاح ترك على المكتب ، او ان ألماً اصابهن في البطن ، او « نوبة » عجيبة او ان هناك شغلا مهما كان يجب القيام به الى آخر ما هنالك من الاعذار الواهية

وفي الامكان ان نبين بوضوح ان هذه الحالة هي اضطراب عصبي ، وقد عرفنا معنى هذا المظهر المشوه الذي نراه في الاجبار العصبي — هو الخوف من المحي . متأخراً — وعرفنا تلك الشخصيات القلقة التي نهادفها على محطات القطر ، من الذين يجلسون في غرف الانتظار ساعات قبل سفر القطر ، ويسألون الحمالين الوف المرات عن وقت قيامه ولماذا لم يفتح مكتب التذاكر بعد ؟ وهناك من يلتهمون طعامهم التهاما بسرعة جنونية ، ثم ينظرون الى ساعاتهم وقد تملكهم خوف من الحمال الذي قد ينسى حقيبتهم او يتأخر عن احضارها ثم يتذكرون شيئا كارسال رسالة تلفونية . واخيراً يسرعون فيصلون الى صالونهم قبل سير القطر بلحظة رغما عن جميع احتياطاتهم . وتصبح جميع حياتهم

نزاعاً للحضور في الوقت المعين ، ويظل هذا ابداً هدفاً لا يصلون اليه .
وحياة مثل هؤلاء . سرعة دائمة فهم يسرعون من الصباح حتى المساء
تشغلهم اعمال ووظائف ، ومهمات لا تعد ولا تحصى ، لا يتممون
احداها . وبالرغم من شكاوٍ اشد خطورة ، وبالرغم من عدم سرورهم
الظاهري من (حياتهم هذه المسافة) نجد انهم هم الذين يرتبون هذا
الدور « اي سباقهم ضد الوقت » فهم يمثلون ابداً فصلاً واحداً هو
حضورهم متأخرين .

وإذا بحثنا في الامر بحثاً دقيقاً وجدنا بعض خصال بسيطة تفضح
معنى هذا السباق الاجباري وتكشف سره . يكون الواحد منهم يقرأ
كتاباً بهدوء فليس في هذا مجال للتسابق مع الوقت . ثم ينظر القارئ
فجأة الى عدد الصفحات ، في الكتاب ويضع لنفسه حداً من الوقت
قائلاً : « سأرى إن كنت اتم هذا الكتاب في ساعة » فيجيبه صوت
داخلي : « انت تغش نفسك ستضطر الى ترك بضع صفحات » فيجيب
الصوت الاول « لا ، سأقرأ عالياً ، وببطء ومع هذا سأحاول ان
اتهي في ساعة » .

فهذه الحالة مناسبة لابتداء الهجوم ، وهكذا يتبدى السباق ضد
الوقت فتزداد القراءة سرعة وينحي الخوف من ان لا ينتهي الكتاب
في ساعة ، جميع افكاره ، بل قد يفقد الرغبة في الكتاب نفسه ، ويأتي
مع هذا القلق والشوق شعور عميق بالسرور (سرور بالفوز) لهذا
القلق المعذب .

ويصعب ان يعترف المريض بصراحة عن الجائزة التي ينالها من

سروره . اما طبيب الامراض العصبية الذي يعرف اولئك العصيين الذين يشكون من هذا العذاب الذي لا يوصف ويهددون انفسهم بالانتحار إذا لم يتحرروا من عذابهم هذا فانه يتعلم في النهاية مرغماً ، ان المريض يقاوم الشفاء لان ارادته الداخلية «ارادة المرض» ، او بعبارة اخرى « سروره في الالم» وهي حالة تعذيب يوجهها الى ذاته — تلعب لعبة جميلة مع اولئك المتألمين ونحدد الحالات العصبية بين المرض والصحة . وكلما ازدادت شكواهم ، استمدوا لذة سرية من عذابهم الذاتي .

يرينا هذا ان الشكل الذي تتخذه هذه الحالة العصبية — التثيل العصبي — له دائماً مغزى عميق . فمثل هذا العصبي (النفروز) يمثّل في حياته يلعب دائماً الدور ذاته .

ماذا يعني هذا المجيء متأخراً على مسرح الحياة ؟ ما الذي يجبر (المريض الممثل) فيشغل ذهنه دائماً بانه قد يفقد شيئاً مهماً ، إذا جاء متأخراً كثيراً ؟ ولماذا تكون احلامه جميعها مؤلفة من فصول يأتي فيها متأخراً ؟ (او ان يتأخر عن قطار في حله فلا يلحقه ، او عربة تمر به فلا يلحقها ، او ان البنت التي يريد ان يتحبب اليها قد خطبت وهكذا الى ما لا نهاية ، فلماذا كل هذا)

ان هؤلاء هم من الذين يتألمون من صغرهم لكونهم قد ولدوا متأخرين وهم عادة الاخوة الصغار والاخوات الصغيرات اللواتي يتألمن من صغرهن من اخوانهم الذين هم اكبر منهم سناً . هذه مأساة قايين وهابيل القديمة او قصة يعقوب وعيسو .

لا ريب في ان الاخ الاكبر او الاخت الكبيرة تتمتع بامتيازات لا يتمتع بها الصغار . وهذه التأثيرات الصيانية تترك أثراً في الطفل لا يمحي ووضح مثال رأيت له . للجيء متأخراً ، رجلٌ ارستقراطي ورث اخوه الاكبر ثروة طائلة مع حقوق مهمة ، ولم يترك له سوى مبلغ زهيد . فكان هذا المريض يردد في نفسه دوماً ما كانت حاله تكون لو كان هو البكر .

ويحدث احياناً ان بعض الابناء يحسدون اباهم والبنات امهاتهن ويتمنون ان يكونوا مكانهم . اكتفي بذكر اسكندر الكبير الذي كان يشكو من خوف هو ان اباه ربما لا يترك له بلاداً يمتلكها . لا ريب في انه كان يشكو من الجيء متأخراً . ان نظرة هؤلاء الى العالم مختلفة فهم يظنون ان ليس في امكانهم الحصول على شيء لان غيرهم قد تقدمهم . وينسبون ذلك الى حقد القضاء عليهم ؛ فانهم هم الذين يجب ان يتحملوا مصائب غيرهم من الذين سبقوهم من مستواهم العقلي ومقدرتهم الطبيعية . فيحرمونهم من الشهرة ، ويكتشفون ما كان يجب ان يكتشفوه هم ويتغنون باناشيدهم ويكتبون رواياتهم . يحدون انفسهم لا قيمة لهم بل اعضاء اضافيين في المجتمع . وهناك الوف ممن يعتقدون ان واكتر الموسيقى الشهير قد سلب منهم حقهم الموروث .

وكل رجل عظيم يعلن عن عظمته للعالم بعمل عظيم يقوم به ، يخلق له اخواناً يلعنونه ويحقدون عليه ويشعرون انهم شلوا ولم يعد في امكانهم القيام بعمل منتج . امثال هؤلاء قد جاءوا متأخرين جداً يتعاملون عن فهم الحقيقة — بل لا يريدون ان يروا — ان ليس هناك

من يأتي متأخراً ، وليس هناك شيء متأخر ابداً . بل كان كل شيء ذي أهمية يأتي متقدماً جداً . وهذه هي المأساة . ان الذي يبعثر قواه على مناظر الحياة الصغيرة لا يبقى له شيء الاعمال العظيمة . يظل دائماً متأخراً جداً ويلتذ سراً وينتصر عن طريق هذا الشعور مهما شكاً من ذلك علناً . ومن المؤسف ان هذه هي الانتصارات الوحيدة التي يحصل عليها امثال هؤلاء العصيين في حياتهم اليومية . ينتصرون على انفسهم فقط ، ويقاثلونها ويثبتون على القتال ، وبرزيتهم ذلك باسباب مقبولة كثيرة اي ما كان يمكنهم القيام به لو لم يأتوا متأخرين جداً الى هذا العالم . هذا الارضاء الذاتي هو الجذع الذي يحمل اغصان شعورهم الذاتي الضعيفة . يقاتلون في سبيل شخصيتهم ويحتاجون الى عذر دائم ليبرروا عدم حصولهم على الغرض السامي الذي سنه لهم طموحهم الواسع .

ما اعظم ما كانوا يصيرون اليه لو لم يعيشوا في هذا الزمن فقط ! ان الزمن عدوهم وحاميهم ومحاميهم وقاضيهم . وانتقامهم الوحيد بل وسرورهم الوحيد ، هو هذه اللعبة القاسية التي يلعبون بها مع الزمن . يكرهون الحضور في الوقت المعين ، لان معنى ذلك اعترافهم بالزمن ، الذي لا يريدون ان يعترفوا به .



الفصل العاشر

ارادة المرض

تعتبر الصحة دائماً آثماً ما في الوجود واعزه ، الا ترى ان ما
 تتمناه من الخير لغيرنا يشمل عادة الصحة الجيدة ، بل هي اجل ما
 تتمناه . (إذ تتمنى الصحة ، والسرور والحياة الطويلة) ذلك لان المرء
 يستطيع ان يتحمل كل شيء اذا كانت صحته جيدة . يقول احد الامثال
 « ان الصحة اعظم ثروة » وكلنا يسعى الى الصحة بل نضحي بأعلى ما
 عندنا للحصول عليها ولاستبقائها . الا ترى اننا نرضخ للقوانين ، والنظم
 الصارمة ، ونضغط على ميولنا في مجار غريبة عنا ، وتحمل جميع انواع
 المشاق بل نمرض لمبالغتنا في الحصول على صحة جيدة . ان « ارادة
 الصحة » هذه هي عامل هام في الثقافة الحديثة وهي تظهر في اهتمام
 العالم جميعه بالالعب الرياضية . و « ارادة الصحة » هذه هي صفة
 بارزة من صفات عصرنا الحاضر . غير ان كل شيء في هذه الحياة ذو
 وجهين — ثنائي القطب — وهكذا فمناك ايضا « ارادة المرض » .

وإذا تكلمنا عن « ارادة المرض » فقد يظهر كلامنا اول وهلة بعيد
 الاحتمال بل مضحكا . ونحن نعرف بالطبع اولئك الناس الذين
 يدعون المرض لمقاصد مختلفة ، فدعوههم « بالتمارين » فهؤلاء لا
 يملكون « ارادة المرض » بل يدعون انهم مرضى فقط ، ويتظاهرون

بذلك ، وهم في الحقيقة في صحة جيدة فيما يتعلق بذاتهم . وإنما هم مرضى لاجل من يحيط بهم او يتصلون بهم .

ولكن المرضى الذين سأتكلم عنهم والذين تلعب فيهم « ارادة المرض » دوراً هاماً ، هم بالعكس اصحاء في نظر غيرهم احياناً ومرضى في نظر انفسهم فقط . مثل هؤلاء يسيطرون ويرضون سرّاً ان يمرضوا مرضاً شديداً دون ان يتمكن احد من ان يتبين مرضهم او يشك في وجوده . اولئك هم « العصبيون » الذين يتألمون في ظروف كثيرة من مرضهم ويضطرون الى ان يتحملوا اشد الاحساسات كدراً . وبالرغم من ذلك فقد نشأوا بحبوتون مرضهم ولا يرغبون ابداً في التخلص منه ، بل يتحاشون عن قصد ، الظروف التي قد تعيدهم الى الصحة والعافية ، وهم يتفرسون في آلامهم ، ومجرد عدم شفائهم وعجز كل طبيب عن مداواتهم ، يبعثان فيهم سروراً عظيماً فيتملكهم ذلك الافتخار المضحك بان مرضهم فريد في بابه . وهذا الافتخار خاص بالموسوسين على صحتهم ، ذلك الافتخار الذي يظهر في ابتساماتهم المتبهكة المتعجرفة — ويظهر هذا جلياً عندما يفحصهم الطبيب فيأخذون في تعداد قائمة العلاجات والعقاقير واسماء الاطباء الذين صارعوا مرضهم حتى ذلك الحين . فلم يفلحوا .

وهنا تبرز لنا مسألة هامة اخرى . وهي هل يعرف هؤلاء المتألمون ارادتهم المرض ، ام ان ذلك احساس لاشعوري فيهم ؟ اننا نسي . استعمال كلمة « لاشعوري » هنا . فان جماعة فرويد في التحليل النفسي يحبون الاستفادة من فكرة اللاشعورية و يرون ان الدافع

لارادة المرض هو لاشعوري . اما ابحاثي الحديثة فقد اثبتت ان
كثيراً من الامور التي ارجعتها سابقاً الى «الاشعوري» متأثراً بآراء
فرويد، يمكن اثباتها بانها شعورية . وربما كان من الاصح دعوتها
بالاختبارات البسكولوجية الناشئة عن «الشعورية المبكرة» . وهي
تلك الاختبارات التي لا تقع دائماً تحت سلطة عقلنا الشعوري بل
متزاح الى ناحية من نواحي العقل من وقت لآخر ، فاذا سُلِّط نور
انتباهنا على مجال الشعور كان النور اشد لمعاناً في بعض الاجزاء منه
في الاخرى . بينما تضاء النواحي الاخرى إما بالاشعة الجانبية او من
آن لآخر . فاذا تَمَثَّلنا النور يشع في جهتنا فقط تكون لدينا مجال من
النور يقع في محيط محدود ألا وهو «الشعور» .

على ان هناك تصورات وانفعالات نفسانية لا نريد ان نراها
لأنها تسبب لنا كدراً فلا يقع النور إلا عليها عندئذ ، في لمحات هنا
وهناك ، ولكن لا يلبث ان يتلاشى تاركاً اياها في الظلام مرة اخرى .
« و ارادتنا المرض » هي من قبيل هذه «الشعورية المبكرة» من
المظاهر النفسية ، ويمكن اثبات وجود هذه الارادة في بعض الاحوال
وجعل المريض يعترف بانه شاعر بها كل الشعور .

قد نفش لو سمحنا لانفسنا ان نقيم وزناً للعبارات الدقيقة التي
يستعملها هؤلاء «العصيون» عندما يراجعون الاطباء للاستشفاء
إذ يطلب جميعهم ويلحون في ان ينالوا الصحة والعافية . غير انهم انما
يمثلون دوراً تمثيلاً مع انفسهم ومع الاطباء لانهم لا يريدون ابداً ان
يصحوا ويشفوا . وقد كان من اغرب ما رأيت في حياتي انني اثبت

دون سابق انتظار ان « ارادة المرض » هذه هي ارادة شعورية في حالة مريض كان يشكو ألماً وعذاباً مرهراً . وقد علت بعدئذ ان جميع هؤلاء « العصيين » يتجاذبهم عاملان متضادان احدهما « ارادة الصحة » والآخر « ارادة المرض » ، « وجميعهم بلا استثناء يخشون في السر ان يفقدوا مرضهم هذا .

فما مصادر هذا السرور اللاحق بالمرض بل « ارادة المرض » هذه التي يصعب علينا فهمها ؟ فوراً ها دوافع اكثر مما نظن اول وهلة . ويجدر بي ان اقدم امثلة عليها ومعها بعض مظاهر لهذه « الارادة المرضية » من اختباراتي .

ابداً بطبيب كان قد وقع في ورطة مؤلمة . ولم يكن يستطيع الجلوس او المشي ، وكان إذا جلس على الكرسي شكاً من ألم شديد ينخره فكان يضطر الى ان يقفز من مقعده صارخاً ، وإذا مشى شعر بألم في اخمص قدميه ، فكان يسير كالأعرج في الطريق بكل مشقة . وكان هذا المسكين يضطر دائماً الى ان يقف في عيادته الطبية اثناء مداولاته وكان يضطر الى ان يدور على المرضى وهو يركب عربة جالساً على فراش وثير . وكان ألمه يزداد كل يوم وتتضاعف ارباكاته وبجابه صعوبات ومشاكل جديدة فيحتاج الى اعمال فكره لحلمها ، اضف الى هذا جميعه انه كان مضطراً الى ان يخفي الآلم هذه . وقد استحال عليه ذلك في النهاية فصار يجلس بحذر شديد على وسادة وثيرة على الكرسي في المطعم ، ولم يكن يستطيع ذلك إلا في ايامه الفضلى .

ولجأ هذا المتألم الى معالجة طبية بشّرت بنتائج طيبة . فصار يجلس

مرة ثانية واصبح يمشي بسهولة يوماً بعد يوم . وقد تبادر الى الذهن انه سر ولا شك لخلاصه السعيد من آلامه وقد كان بالتأكيد يسر في بعض الساعات كالرجل الذي يتألم من ضرسه ثم يسر لتخلصه من ألمه عند خلاصه . ولكنه اعترف بصراحة انه كان يسمع اصواتاً تقول له ما يشبه هذا الكلام « ان من المحزن ان نزول شكواك القديمة العزيزة ، لانها لم تكن بهذه الدرجة من السوء ، لقد عشت سنيناً عديدة ، وانت تشكو المرض ، فكان مرضك صديقاً مخلصاً لك . »

ويظهر مرض هؤلاء في احلامهم مرموزاً اليه بصديق . فيحلمون انهم سوف يفقدون صديقاً قديماً — ومع انه كان قد آلمهم حقاً — إلا انه كان اميناً مخلصاً لهم كل الاخلاص . ولهذا فهم يعتبرون مداوانهم اعتداءً من الطبيب على اعز ما يملكون الا وهو مرضهم . ويحلمون ايضا ان كنزاً غالياً سوف يسرق منهم ، إذ يعتريهم دائماً الخوف من زوال هذا المرض العزيز عليهم . ويظهر هذا واضحاً في احلام اخرى . فقد قال لي احد مرضاي في اول يوم عاجلته انه حلم بان هناك مؤامرة تحاك لاغتيال الملك (الفونسو) وانه قام من الحلم مذعوراً يخفق قلبه . وقد كانت تذكاراته مع الملك الفونسو عجيبه جداً . إذ انه ولد في ذات اليوم الذي ولد فيه الملك الاسباني وكانت عائلته تدعوه احياناً كثيرة بالبرنس الفونسو . فكان « الفونسو » الذات الثانية التي تملكته وسيطرت عليه وكان مرضه في الحقيقة كالمملك بل ملك مستبد مطلق ، إذ كان يشكو من حالة عصية اجبارية ، جعلت حياته عذاباً مستمراً ، فلم يكن يستطيع الاكل دون ان يقوم بامور

معقدة قبل الاكل ولم يكن يخرج من بيته قبل ان يدور فيه دورة خاصة على نظام خاص . وكان وهو خارج بيته يشكو من خوف عند جذب محفظته او منديله كأنه يفقد شيئاً عزيزاً وهكذا يتبدى بعد نقوده وتفتيش ثيابه وينسج على هذا المنوال مدة غير يسيرة . ومع انه كان لا يزال شاباً فان حالته لم تسمح له بإتمام دروسه فكان بائساً منهمكاً في مرضه ، في حين كان رفاقؤه قد أصبحوا أطباء يشغلون مراكز هامة .

وهذا الرجل الذي كان يبكي وينتحب ، ويدعي انه يأس (وقد يكون كذلك في الحقيقة) تملكته « ارادة المرض » حتى ان فرائضه ارتعدت من الليلة الاولى لخوفه على مرض « الملك الفونسو » .

وقد اعترف لي هذا الرجل الذكي فيما بعد انه كان يكلم « مرضه » في احاديث طويلة صارخاً « دعني ايتها المرض اعيش ! دعني اعيش » . وكان الدافع لمرضه بغضه الشديد لوالده ، الذي لم يلتفت اليه التفاتاً كافياً ولم يعبأ كثيراً بنجاحه الباهر في المدرسة الثانوية بل اعتبر ذلك امراً عادياً . وكاد هذا الشاب الذكي ذو المستقبل الباهر يقضي على حياته من جرأه غضبه الذي نراه في فقدان عطف والده عليه من جهة ، وفي ميل الى تعذيب نفساني فيه لان يقاص نفسه على تفكيره الخاطى .

واليك مثلاً آخر احدث مما مر . ذلك هو مريض كان يشكو من حالة هيج عجيبة وكان مجبراً على ان يركض هنا وهناك طول النهار

ولم يكن ليجد راحة في اي مكان لا في العمل ولا في الكتب ولا في التسلية بل كان يعيش عيشة مضطربة قلقة لا تستقر على حال ، برزحه تأثر ويقلقه اخر وكان يُساق باعمال قهرية مختلفة فلم يكن يصلح للقيام بأي عمل او مهنة . وقد حلم في الليلة الاولى التي جاء يتعالج فيها ما يأتي قال لي : « كنت في باخرة فنظرت الى البحر فكان هائجاً ثائراً وقد اشتد النوء فكان هديره يدوي في رأسي . ثم شاهدت متأسفاً ان البحر اخذ يهدأ . فقلت لنفسي من الخسارة ان ينتهي هذا النوء الجميل . إذن ستصبح السفرة مملة وعلى وتيرة واحدة بعد الآن . » وكانت سفرته في الحلم هذه هي سفرة حياة ذلك المريض .

لقد كانت حياته حينئذ كالبحر الهائج ، تتأثر ابدأ بتأثرات جديدة ، وبسياحات وتغيرات مستمرة . فهل ينتهي جميع هذا ويتغير ؟ وهل تصبح الحياة سلبية كالسفر في بحار هادئة ساكنة ؟ ظهر هذا مملاً في الحلم فخطر بباله في اليوم الثاني ما يأتي : « ان الحياة مع المرض جميلة جداً . فهي تسبب لي آلاماً لا تنتهي ولكنها تحدث في حياتي تغييراً مستمراً بل تصبغها بلون خاص ، اصف الى هذا انها تجعلني شخصاً يهتم به الناس ويرغبون فيه ، . هذه الفكرة كانت تسبغ عليه في السر سروراً دائماً . لقد كان مرضه فريداً في بابه وليس هناك على ما اعلم انسان يشكو مثل هذا المرض .

ولكن هذا الافتخار وحده لا يعلل «ارادة المرض» فهناك دوافع اخرى كثيرة تعلله إذ يستطيع المتألم بواسطة مرضه ان يتسلط على محيطه ويخضع الجميع لخدمته فهو يطلب المرة بعد الاخرى خدمات

صغيرة وكثيرة ويستدر العطف عليه وهكذا يجتذب المحبة على دفعات صغيرة . واقتضاه بمرضه لا يحتمل اية مقابلة بين آلامه وآلام غيره . والنكتة الشهيرة عن الرجل العصبي المزاج ، حقيقة لا مراة فيها فقد قال لآخر عندما تألم لعذابه : انت ايها الرجل الصحيح لا تخجل ، كيف تجسر ان تقابل مرضك بمرضي ! » .

ولكن اهم دور يلعب هو في التضحية اللذيذة ذات المغزى الديني ، فان هؤلاء المرضى يشعرون بانهم شهداء عظماء وهذه الفكرة تسبغ عليهم سروراً بالغاً يعادل آلامهم ، والسرور عند الالم (الماسوشيزم) حالة شائعة اكثر مما يظن الكثيرون . هذه الفائدة في السرور هي التي تعوض المتألم المعذب عن آلامه وحرمانه . فحتى الالم يمكن تحويله الى لذة وسرور . وكثير من الشهداء جلب لنفسه سروراً بالغاً اختبره عن طريق آلامه ، يضاف الى هذا الدافع الديني — وهو ان تعويضاً تاماً ينتظرنا في السموات لجميع ما حرمانا منه في هذه الحياة الدنيا ، بل هو تعويض مضاعف ، اذ هو هناء دائم ، يقوم مقام جميع المسرات التي فقدناها في هذه الحياة ، وجميع ما عجزنا عن القيام به ، بل وجودنا البائس المشبع بالآلام المعذبة ، والسلسلة التي لا تنتهي من انكار الذات . وعندما نوازن بين آلام الشهيد وافراحه نرى ان كفة الالم تنخفض وتشيل الاخرى . ولا شك في ان آلامه سيعترف بها يوم الحساب العظيم . وهكذا يعوض المريض المسكين عن آلامه الدائمة تعويضاً سخياً ، ونحن نرى في محاولة الوصول الى عالم افضل لوناً قوياً من المثالية ، تجتهد المجاهد يباعث قوي يدفع به الى العلاء . فاذا كانت آلامنا

الاعتيادية مريرة ، وإذا كان الرجال العظماء يزدادون عظمة عن طريق الألم فقط ، كان المبدأ أشد انطباقاً على الألم الذي يشكو منه المريض العصبي . وهذه الآلام لها أثرها التكويني في النفس ، وافتخار هؤلاء الناس بآلامهم ومقدرتهم على محبتها يصبحان مفهوميين .

يقول نوفالس « لا شيء يفرق الإنسان عن الطبيعة أكثر من اكتشافه فكرة محبة الألم والعذاب » . فالمتألم يرتفع في مرضه عن مستوى العامة بل فوق الطبيعة التي إنما تقدر قيمة الصحة ومسرات الحياة . فهو يستمد السرور من مصادر جديدة ، وهو يكتشف امكانيات لم يعرفها من قبل في عالم اللذة ، وهكذا يوسع حدود الانسانية وهو ذلك المكتشف الاتوقراطي لافراحه وراحته وهكذا يكاد يقترب من مصاف الآلهة .

دلتني مرة إحدى السيدات الرشيقات الذكيات من ذوات الملاحظة الدقيقة الى قول (لجوته) قالت : « باحثت نفسي وقد تحلل ذلك انغام لطيفة فمابلت نحو النوم والألم والحزن ، بل نحو كل رغبة تجيش في نفسي . هكذا تحولت آلامي الى سرور ، واصبحت انفعالاتي المكبرة انفعالات متناسقة متألفة » .

فما معنى قولها « باحثت نفسي » ؟ هنا يكمن اللغز ، هنا ينكشف السر العظيم « لارادة المرض » . فان المتألم يكلم نفسه ويناجيها اي بزور (دار تمثيله) الذاتية كما سميت هذا المظهر . وهذه الدار تقدم له اجمل الروايات وادهشها ولهذا فليس هو في حاجة الى مشاهدة غيرها . فهو المتفرج على آلامه وراحته وهو النقاد وهو الشاعر

وهو الممثل ، وهو جميع هؤلاء في شخص واحد . وهو يسر من هذه الدار التمثيلية فهي تمثل له فصولاً متتابعة فيسمح لنفسه المرة بعد الأخرى بترتيب ليلة سمر يدعو إليها الأطباء وافراده عائلته .

وفي صميم صاحبنا هذا بعض صفات برنارد شو الكاتب الأيرلندي الشهير الذي يهزأ من متفرجيه . فهو يبكي بعين ويضحك بالآخرى . وهنا يقع الخطر الأعظم لأن الرجل الصحيح كالنوبي الماهر الذي يمسك الدفة فيدير سفينة حياته بيد حازمة ويعتصم سير نهاره بنفسه . إلا أن مريضنا لا تتنابه حالات ذهنية خاصة فحسب بل تملكه هذه الحالات . فيفقد مبكراً مستغرباً ليعرف أي نوع من النهار ينتظره ثم يقف مندهشاً أمام تلك القوى السرية التي جادت عليه (يوم ايض) . وفي اليوم الثاني يثن من هذه القوى العجيبة التي عملت بالسر وخصت ذلك النهار « بالسواد » فيتقبل أيامه واعراض مرضه وآلامه ، كما يتقبل القضاء فيهمل بل ينبذ النزاع والقتال فهو نقاد « دار تمثيله الذاتية » نسي أنه قد يكون الشاعر بل المبتدع ونسي أنه كان يتمتع مرة من الزمن « بارادة الصحة » . وقد فقد قوة العمل الآن لأن العمل يمنعه من زيارة (دار تمثيله) فلا يبقى له وقت للتفكير ، والتأمل .

ولهذا اطلب منكم أيها المرضى الذين سدت في وجوههم ابواب الحياة من جراء « ارادة المرض » أن تغلبوا عليها « بارادة الصحة » . ان الحياة تجلب معها آلاماً كافية لترفع نفوسنا ، بل حرماناً كافياً ليؤذينا ، بل احزاناً ومتاعب كافية .

تعلموا ان تحبوا الحياة وانتبهوا كي لا تفوتكم مسرات الحياة الصغيرة . لا تعفوا انفسكم من الحياة ، ولا تجعلوا من انفسكم آلهة لعالم من المرض خلقتموه اتم بانفسكم . ما هذا العالم المضحك ، المشتت الباطل ؟ اصبروا ، وانتظروا لتروا ما تجلبه لكم الحياة . ان الساعة آتية لكل واحد منا حين يزاح الرباط عن اعيننا فتفتح امامنا مناظر منعشة لافق مجهول وستفتح العنان يوما ما والدهشة تعرف الواحد منا فيقول : لم اكن ارى الحياة جميلة بهذا المقدار . .

وهناك رباطات واغطية كثيرة ، بل هناك غمام ، وهناك (تلسكوبات) مشوهة ونظارات قدرة تمنعنا من رؤية العالم رؤية واضحة . وإذن يجب على كل واحد منا ان يتعلم قبل كل شيء ان يرى بوضوح وجلاء .



الفصل الحادى عشر

الارادة للقببح (نريد ان نقبح)

إن للارادة قدرة على تحويل الجسد من حالة الى اخرى ، فان
الناس الذين يرغبون رغبة اكيدة في ان يكونوا جميلين يصبحون كذلك
في النهاية . و « ارادة الصحة » هي جزء من الصحة في حين ان « ارادة
المرض » هي اساس كل شكوى عصبية . يشير (كوهنستم) الى
الشعور الوجداني بالصحة ذلك الشعور المضطرب في العصبي المزاج .
ولكن هناك ايضا الشعور الوجداني بالجمال ، ذلك الشعور الذي
يصبح شخصية الفرد بطابع خاص . فهناك امراض يفقد الناس فيها
شعورهم الوجداني بالجمال . مثال ذلك السوداويون فانهم يسرون سرأ
لاهمال مظهرهم الخارجي ، فتتبدل شعورهم متشعبة ، ولا يغسلون
اجسادهم ، وتشوش عيونهم من جراء البكاء والنحيب . ويحولهم المرض
من شخصيات جذابة الى اناس قبيحي المنظر . وهى ابتدأوا يتسمعون
مسرورين ، او اخذوا يسرحون شعورهم او يلبسون بدلة جديدة ،
كان ذلك من العلامات الاولى لاستعادتهم صحتهم . فيعود اليهم
كبرياؤهم ويتنبه فيهم (شعورهم الوجداني بالجمال) .

وبعض هذه الامراض العصبية تجمل المتألم الذي تتحول ملاحظ
وجهه من جراء الالم ، ولكن هناك نوعا اخر من هذه « الامراض

العصية ، التي تظهر نفسها في القبح . وهذا القبح مقصود ويقوم بمهمة سرية . إذ يقوم بوظيفة الدفاع او القصاص ، او الاختبار او لمجرد الهوى . وكثيراً ما يكون هذا القبح المقصود وسيلة الى الدفاع ضد ما نتعرض له من التجارب . فتلك البثور الغريبة التي تشوه جلد النساء الجيلات من هذا القبيل . وتكثر المصابات عادة من مثل هذا التشويه ولكن لا يخطر ببالهن انهن هن اللواتي يحدثن هذه البثور بمهارة عجيبة بل هن اللواتي يضاعفنها . وقد عرفت سيدة تشوه وجهها بمرض (القوباء) (١) يوم كان زوجها يقضي واجبه في خدمة الجندية . ولما عاد ، اختفى ذلك المرض حالاً مع انها كانت قد تداوت وتعالجت عند كثيرين من الاطباء ولكن دون جدوى . وقد ظهر فيما بعد ان تلك السيدة كانت تحك وجهها باستمرار الى ان ظهرت عليه اخيراً تلك البثور . ولم تكن تشعر بانها انما كانت تدافع عن نفسها لكي لا تقع في التجارب التي تقع فيها النساء اللواتي ينفصلن عن ازواجهن وقتاً ما .

واغرب من ذلك مثل البثور في وجه صبية . وقد استلقت هذه البثور انتباه كثيرين من الاختصاصيين الذين عجزوا عن معالجتها . وكانت تلك الصبية ابنة احد اصحاب الملايين وقد استسلمت لمغازلة موسيقي فقير . وقد تلوفيت العواقب ، ورتب العقد ، إذ هدّدت الصبية بالانتحار إذا لم يعقد لها عليه ، وكانت هي وحيدة والديها . وظهر بعد

(١) دام يظهر في الجسد يتقشر ويتسع وهو معروف (بالاكزيما

ذلك ان حبها انما كان منشؤه تحب ، القصد الوحيد منه قصاص والدتها لان الابنة كانت تعتقد ان والدتها لم تكن تعطف عليها . وقد وقعت مريضة وأرقت واصابتها نوبات عصبية فجاءتني للتدواي ، وكان منظرها مخيفاً وقد غطت بقع حمراء جبينها بل جميع وجهها وسال من بعض هذه القروح القيح ، وظهر بعد ذلك انها كانت تحك وجهها في الليل الى درجة تعذرت معها مداواتها ، واكدت لي ان الاكلان كان يحرمها من النوم ، ولكنها ظلت تحك وجهها حتى بعد ان كانت تتناول جرعة المنوم كما كانت تفعل في اكثر الاحيان . وقد عاشت في حالة تخدير دائم . وكان خوفها من السهر اعظم من حاجتها الى النوم ، وكنت ارى انها انما كانت تقي نفسها من عناق خطيبتها لها ، وانها كانت تفضل لو يفسخ العقد ويتركها وشأنها ، اما هو فظل اميناً لها بالرغم من هذا التشويه الذي عجز جميع الاختصاصيين عن مداواته ، ولم يخطر بباله قط ان يفصل عنها . ولكي نحكم على الطبيعة المزدوجة للصايين بالهستيريا علينا ان نعتبر النزاع بين الشعورية والشعورية المشاركة ، إذ عندما كان الامر بين خطيبتها ووالدها مقتصرأ على اختلافات مادية كانت تهددهم بالانتحار لو منعوها عن الزواج منه ، اما باطنياً فقد كانت ترغب في الانفصال عنه بل ارادت ان تنفصل عنه بتشويه ذاتها ، ولكنها لم تكن تشعر بذلك ، وكان هذا نزاعاً عظيماً لا مهرب منه وقد كان هذا الاختبار قد الف رابطة متينة بينهما .

غير انها كانت حسنة الحظ في مصابها ، فان الموسيقى كان رجلاً ذا اخلاق طيبة يحبها حباً حقيقياً وكان يرغب في تزوجها حتى ولو

كانت فقيرة ، كما كان سيتبين ذلك فيما بعد ، فقد نجح وذاع صيته وصار كفوواً لها . وشفيت هي من حالتها العصبية ، في الوقت ذاته واختفى ارقها حالا ، وتحسنت معه تلك البثور التي سببت لها تلك الآلام ، وقد كان ذلك ايضاً اختباراً لعشيقها فقد اخذت تسائل نفسها ، هل يظل يحبني يا ترى لو تشوّه وجهي الجليل ؟ فكان جوابه على ذلك واضحاً . ثم تستمر في السؤال فتقول وهل يظل يحبني لو اصبحت فقيرة ؟ وقد حمل اليها القدر جواباً صريحاً حتى على هذا السؤال ، إذ اضاع والدها الغني جميع ما يملك ، ومع هذا ظل خطيبها مخلصاً لها بالرغم من خسارتها واصبح القبح حينئذ غير ضروري وشفيت هي من البثور بسرعة عجيبة بعد الزواج .

ان طبيب الامراض العصبية يحتاج الى مدة طويلة ليكتشف في كل مريض (ارادته للرض) وما يرغب فيه كل مريض من الريح من جرّاء المرض . وكل حالة عصبية لها قصد محدود ، وهي تجازي صاحبها بقسط من السرور يمكن ان نعتبر عنه (بالتلذذ بالآلام) او (بالامتياز الناتج عن الآلام — ميزة الالم) . حتى ان القبح المقصود يسبغ على صاحبه لذة بل يمكن اعتباره نوعاً من القصاص الذاتي لما يرتكبه الفكر من الخطايا ، على ان التوسع في هذه الافكار قد يضللنا فهناك نوع من القبح يظهر في اعوجاج الوجه وحركاته المضحكة والتوائه . وانما اشير هنا الى الانواع الكثيرة من الغمز العصبي فكثير من الوجوه الجميلة تتغير كثيراً عند حدوث هذه الحركات فاللسان يمد والانف يلتوي والعيون تنقلب والفم ينحرف . مثل هذا القبح يمكن

اعتباره مقصوداً . وليس من السهل ان نرى الدافع لهذا التشويه ولكنني لم ار حادثة واحدة لم يكن فيها هذا القبح المقصود فعلاً لا ومشاركاً مع غيره من العوامل في احداث تلك الصورة المعتلة من القبح ، وكثير من المصابين بالحالات العصبية وخصوصاً النساء يتخذن وضعاً في مرضهن يصبحن معه قبيحات كل القبح ، فانهن يقبضن انوفهن ويشدّدن على شفاههن ويصبح صوتهن ضعيفاً خشناً وتهزل اجسامهن لامتناعهن عن الطعام ، وهكذا تنتهي المرأة الجميلة الى ان تصبح قبيحة دمية .

ومن هذا القبيل الانوف الحمراء والايدي القاسية والاجفان الملتهبة . ومن العجيب ان نرى كيف يعود الجمال بعد الشفاء وكيف يظهر هذا الجمال في البدء متواضعاً فاتناً ، ثم يجرؤ على الظهور شيئاً فشيئاً الى ان تنقلب (الارادة للجمال) الى (ارادة للقبح) .

والقبح النفساني قد يكون مقصوداً ايضاً فكثير مما هو وحشي وتشتمز النفس منه في خلق الواحد منا ليس سوى وضع من الاوضاع بل هو تمويه يخفي فينا ناحية لطيفة مقبولة . فكلمة « Hässlich » التي تعني « قبيح » ليست مأخوذة من « Hassen » التي معناها « يكره » دون سبب . فالشخص الذي يحب والذي يسر نجهه يرغب دائماً في ان يكون جميلاً في حين ان كره الواحد منا نفسه او غيره يجعلنا قبيحين . وحيثما يكون الكره يهدم هيكل الجمال بل يصبح اطلاقاً دارسة . فالحب والجمال صنوان يسيران جنباً الى جنب كما يسير الكره مع القبح . هذا ما جعل العالم قبيحاً اليوم ، ولا يمكن ان يصبح جميلاً إلا إذا

جعل دين الحب جميع البشر اخواناً، حينئذ تتلاشى العداوات وينقلب القبح جمالاً إذ في العالم كثير من القبح المزيف . وليست الأمراض العصبية سوى ردود فعل تقوم بها لصد عادة الحوادث الخارجية . فعالم الصدق والمعرفة الذاتية يجب في الحقيقة ان لا يشتمل على امراض او حالات عصبية وما ينتج عن ذلك من القبح المقصود . والاشخاص غير المسرورين يعبرون عن عدم سرورهم بالقبح ، ونحن بحاجة الى قسط اعظم من السرور ، وهذا يجعل طرق الالم الملتوية التي نعبر عنها في امراضنا العصبية في الافراد وفي الامراض الاجتماعية في الجماعات امراً غير ضروري ، ونحن بحاجة الى جنس بشري يتحلى بالشجاعة ويحابه نفسه ويعترف بما في نفسه من الجمال والقبح، البشري والسمائي والنزعة الالهية والحيوانية .

ان الذي نستطيع ان نتغلب عليه هو الذي نعترف به ، ومعرفة الذات هي مفتاح الحكمة والسرور والجمال .



الفصل الثاني عشر

عالم الوهم

تتكسر ارادة العصبي - «النفروز» على صخور الحقيقة الحديدية .
فان حياته جميعها هي نزاع مع الحقيقة ، وتدفعه الهوة المنفصلة بين
الجهود وما ينجزه الانسان ، الى عالم الاحلام حيث يندمج الفضاء
والزمن والماضي والمستقبل في وحدة لا رسم لها . وتنمو قوة عالم
الاحلام هذه شيئاً فشيئاً الى ان تنتصر في النهاية على عالم الحقيقة . ولا
يسمح بالحقائق في ذلك العالم بل تلغى الحقائق التي لا تتناسب مع
مطالب ذلك العالم الغاء استبداديا .

واليك هذا المثل فهو يبين كيف يلغي العصبي (النفروز) هذه
الحقائق . حمل احد المرضى الذين كانوا يراجعوني ورقة ممزقة قدرة
مدة اربع سنوات وكان ينقلها بحذر من بدلة الى اخرى ولم يكن
ليتركها . اما محتويات تلك الورقة العجيبة ، فلم يشأ ان يقرأها مرة
واحدة ولكنه كان يحملها معه (بصفة آليه) كما قال لي . وكانت هذه
الورقة مسودة كتاب كان كتبه الى احدى السيدات ، وسألته إذا كان
لهذه الورقة اي مغزى خاص عنده ، فانكر ذلك وادعى انه يحمل
السبب الذي يحمل من اجله تلك الورقة طول النهار وكل يوم .

واخيراً لما تعذر عليه الاستمرار في تضليله اوقف الرواية التي

كان يمثّلها لنفسه ولكنه اعترف بمصدر آلامه . كانت تلك الورقة كتاباً كتب لصية يوم زواجها وقد اشتمل على نهان ، وذكريات ماضية ، وانكار بل شكوى ، فقد كان احب تلك الفتاة حباً شديداً ولم يكن يملك قوة ارادة يستطيع معها ان يجذبها اليه . ولم يكن في امكانه بل لم يشأ ان يقول كلمته الاخيرة ، ورجا ان تنتظره الفتاة فكان يفهم نطق حبه وغرامه الهنّادى . فلما فقد هذه الصية زال السرور البهيج من ذلك الشاب . ولما عجز العالم عن ان يقدم له شيئاً غرق في عالم ثان — وهو عالم الاحلام . فكان قد خسر العالم الاول لخطأه ولتردده الجبان، ولخبرته القصوى وللبالغته في الاهتمام بعائلته . فخرس بذلك العالم الى الابد .

قلت الى الابد ؟ ولكن في عالم الحقيقة فقط ، اما في عالم الوهم والخيال فان الصية لم تزل عذراء حرة لم تتزوج ولم يكن بعد قد ارسل لها كتاب الوداع . فكان يحمل رسالته اينما ذهب اذ كان قد الغى حقيقة زواجها ، ولم يكن لهذه الحقيقة اثرٌ في حياته . كان هذا عكس الطريقة التي يسميها فرويد « الاستبدال » . ان الذي يستبدل لا يعرف في حالة شعوره ما يتذكره تماماً في عقله الباطني . خذ هذا المثال : ابنة نسيت حادثة محزنة مكبرة جرت لها ، تتلخص في ان احد المعلمين حاول اغتصابها . ولم تذكرها في صحوها كأنها لم تحدث ، ولكنها كانت تذكر تلك الحادثة في احلامها ، او تحت تأثير التنويم المغناطيسي ، وفي نوباتها الهستيرية وكان يعرفها ذات الانفعال الشديد

بالقلق . ذلك بأن عقلها الباطني اللا شعوري يعرف ما لم يشأ عقلها الشعوري ان يعرف .

اما حادثة المريض الذي نحن بصدده فتختلف عن ذلك . ذلك بانه فقد عروسه في حالته الشعورية . اما في عقله الباطني فان امر زواجها كان قد النغي .

ولكن ما فائدة هذه الرسالة اذن ؟ كانت هذه الرسالة البقية الباقية من (الحقيقة) التي استعملها ذلك العصبي (النفروز) ليحرك بها جلباباً من الخيال . ونحن لا نزال نراقب مرة بعد اخرى في هذه الاعراض المتجددة بقايا (عالم الحقيقة) بل ذلك الفقر المدقع ، الذي يخلق منها العصبي عالماً واسعاً من الخيال .

والحادثة التالية تبين بصورة اشد وضوحاً قوة الخيال الابداعية ، التي خصها العالم البحاثة الفرنسي ريبو بكتاب كامل . تلك قصة محبين كانا يرغبان في ستر حبهما ، فقررا ان يضللا من حولهما فاخترعا لها شخصاً ثالثاً . وكانت الام قد داخلها الريب في امر العاشق من زمن بعيد ، وكان لهذا العاشق اسباب قوية تدعوه الى اخفاء حبه مدة اطول من الزمن . وكانت المحبوبة ارملة صبية تعيش مع والدتها وهي سيدة غيرة غير شديدة . وقد قالت لو والدتها انها تعرفت باحد الضباط المهندسين واسمه ماير . وصارت تتناول رسائل ورسوماً من حبيبها المستر «ماير» . اما حبيبها فقنّع صوته وادعى انه المستر «ماير» وطلب ان يكلمها بالتلفون . واجتمعت به وضربت له المواعيد ، واخيراً غارت الام من المستر ماير هذا ، ولم تعد تشك في الحبيب

الحقيقي ثم حدث في اثناء ذلك شيء عجيب ففي يوم من الايام اصبح مخترع فكرة « ماير » يغار من المستر « ماير » الموهوم ، وصار يسلك احياناً بل يفكر كما لو كان المستر ماير حقيقة موجودة . وهكذا تسلل بينه وبين محبوبته شيء عداوي منفر . فكان هناك اسم واحد وفكر واحد وخيال واحد ، ثم اكتشفا سوية وقد تملكهما الخوف انهما لا يستطيعان ان يلعبا بالارواح ، إذ من يضمن ان يخرج لهم مستر « ماير » حقيقي من بين عالم الوهم . وقد لاحظ الحب والقلق والشك يعروانه ان حبيبته ايضا كانت تلعب دورها باتقان وبلا تصنع مرموق — وكانت تمر به فترات يشك فيها فيما إذا كان المستر ماير هذا ليس شخصية حقيقية ، وانه يرتبط مع حبيبته بمواعيد يقابلها فيها ، وبالاختصار فان الخيال نزع الحياة ولونها وتداخل في حياته الحقيقية ، ولما شعرا بالخطر ، لم يكن لهما بد من ان يهجرا فكرة « ماير » بالمرة .

واليك حادثة ثالثة وهي من اغرب الحوادث . روى لي شاب فنان على جانب من الذكاء قصة حب مؤثرة بديعة حدثت في (ابازيا) . اشتملت على وصف ضوء القمر والتجديف والقبيلات والوعود والانفصال والهجران والآباء المخاضمين والعائلة الارستقراطية ، والعقبات التي يستحيل تذليلها . فاصغيت اليه بشوق زائد وسررت بان ارى ان عصرنا الجدي لا يزال فيه هنا وهناك مسحة من عالم الحب والمغامرة التي انقضى عهدهما . ولم يكن هناك اي دليل على ان الرجل كان يضلني ثم جاءني بعد ذلك بسنة . فلم تكب كلمة من الكلمات التي تفوه بها صدقاً . بل كان كل ما قاله وهماً ومن نسيج الخيال . وقد كان

رأى السيدة عن بعد فقط . وامتع ما في روايته انه غش نفسه فاعتقد
بحدوث القصة ورواها لي بنية صادقة معتقداً بحدوثها ، وعاشت القصة
مدة سنة في خياله ، وفي نهاية السنة شعر بحاجة الى حزن عميق للعمل
الابتداعي الذي كان يقوم به كما كان يحتاج في البدء الى حب عظيم ،
فقرر ان يكتب الى حبيبته كتاباً يطلب فيه يدها . ولم يكن في استطاعته
ان يعيش بدونها ، إذن لا بد من الوصول الى قرار ، وكانت قد
فترت همته مدة سنة دون ان يراها ، وكان ذلك فوق طاقته ، ولم يكن
يستطيع ان يتحمل العذاب . فبعث بالبريد كتابه دون عنوان ولم
يكن على الغلاف شيء . وانتظر جواباً لكتابه ومرّ اسبوعان فلم يصله
جواب طبعاً . فجلس وكتب لنفسه كتاباً بخط مقتنع — وكان
الجواب بالرفض من حبيبته الموهومة ووضع الكتاب في البريد ،
وعنونه باسمه ، وانتظر اربعة وعشرين ساعة في قلق أليم . واخيراً جاء
الكتاب (الذي كتبه بنفسه) فأغرقه الكتاب في لجة عميقة من
الحزن واخذ يقرأه مرة لعله يجد فيه كلمة سلوى . ولكن دون
جدوى . واخيراً قرر الانتحار ، ومثّل دوراً هزلياً . فصوب المسدس
بعزم اكيد الى صدغه . في هذه الحال المزاجية نشأ عمله الفني الذي
اضطره لكتابة رسالته من اجل تحرير نفسه ، ثم افاق من غفلته
وعرف انه انما كان يمثّل تمثيلاً . فحجل واضطر ان يخبرني الحقيقة
فاعترف بأنه غش نفسه في البدء ثم غشي . الى م كان هذا الرجل
يسعى ؟ انه كان يقوم بتجربة ؟ كان يشتهي الحياة ويتحرق شوقاً اليها .
وها انا اثبتت للمرة الثانية من حقيقة قلتها سابقاً وهي ان — العصيين

(الفاريز) لا يمرضون من اثر ما يختبرونه بل مما لا يختبرونه .
 انهم يخلقون لانفسهم عن طريق آلامهم — اختبارات ، ومهتجات
 واحزاناً وهموماً وآساً — مما لا يستطيعون ان يعيشوا بدونه .

نحن نفهم حاجة المصابين بالهستيريا للناظر التثيلية كل التثيلية
 فان حياتهم تمر بهدوء ملحوظ وصفة هادئة . لهذا يقذفون بأنفسهم
 في عالم الخيال وينجزون (الحقيقة) عن طريق الخيالات التي تنشأ
 في عالم احلامهم . والحدود بين المظهر والحقيقة ، تتلاشى عندهم ، ولا
 يبقى لها اثر ، فهم لا يكذبون حتى عندما يظهرون كذلك ، انما هو
 صدق عالم ثان هو العالم الحقيقي الوحيد في نظرهم .



الفصل الثالث عشر

ضعاف الارادة

« لك ان تسألني ما تريد ولكن لا تكلف ارادتي شيئاً ، إذ ليس لي ارادة ما » — هذا ما قاله لي احد « العصبيين » الذين كانوا ينشدون الصحة والعافية . وهذه هي القصة القديمة ذاتها . بل السؤال الازلي . هل يستطيع الطبيب ان يدخل في روع المريض ارادة جديدة ؟ وهل يستطيع ان يحول ضعف الارادة الى اقوياتها . وهل ضعف الارادة خصلة تولد مع المرء ام هي تنمو وتزداد ؟

إن المرضى يرغبون من الطبيب عادة ان ينوّمهم تنويماً مغناطيسياً ، ليقوي ارادتهم ، او ان « يستهويهم بطريقة من الطرق » ، إذا كان المريض في حالة نوم مغناطيسي . إن هذا امر يدل على فهم مغلوط في المريض العصبي ، لان المرض إنما ينشأ عن نزاع بين ميلين متضادين فالميل الاول يظهر باصرار المريض على شعوره بالالام ، وهو المظهر الغريب الذي وصفناه « بارادة المرض » ، والاخر يرمي الى قهر المرض ويظهر نفسه في « ارادة الصحة » . (وارادتا الصحة والمرض هاتان) تتنازعان السيادة على العقل وترميان الى التسلط عليه . والتويم المغناطيسي يقحم نفسه بلا تبصر في هذا المشهد ، دون ان يعرف القوى الفعالة او دوافعها الباطنية . لان « ارادة المرض » تتأثر من دوافع مختلفة ولا يمكن ان تقهر إلا بعد اكتشاف دوافع المرض .

وفي الحق ان هذا الامر الذي له مغزى خاص عند جميع العصبيين برينا مثلاً من امثال انفصال الارادة، ذلك بان العصبي لا يستطيع ان يكون رجلاً قوي الارادة، لان ارادته مجزأة مقسمة، فليست له ارادة واحدة بل له عدد منها .

والحقيقة ان جميع الناس في الاصل متساوون في كمية ارادتهم، فقوي^١ الارادة يستطيع ان يستعمل قواه المشتركة إذ لا يتوجب عليه ان يحارب الارادة — المعاكسة — اما ضعيف الارادة من الرجال فان ارادته — و ارادته المعاكسة هما في نزاع مستمر .

دعنا نبين لك هذه الحالة بمثل حي ، شاب ذو مواهب متميزة واسع المعرفة والاطلاع يجد نفسه في حالة مكدره .

وقد خطب ليتزوج ، وهو يحب خطيبته حباً جماً ، وينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي تجتمع به اجتماعاً ابدياً . على انه عاطل عن العمل في هذه الاثناء . وكان يعيش مع والديه وهو يفتش عن عمل ليتمكن اخيراً من الاقتران بمن يحب . وتمر الايام وهو لا يعمل عملاً فينسى انه يعرف لغات عديدة ، وانه لا يستفيد من مقدرته الادبية ، ولا يفتش عن عمل بحماسة ، ينتظر ان تصدر من كان في مركزه . فهو يشعر ان ارادته مقيدة ، فلا يجهد نفسه حتى في ارسال اتاجه الادبي الى مجلة من المجلات . فاذا سمع او قرأ عن مركز خال ، ذهب ليطلبه ببطء وحذر ، بحيث يسبقه غيره فيأخذ ذلك العمل قبله . وما اغرب انتقاده المراكز الخالية ، اذ يقول لنفسه « هذا الاجر قليل جداً ، وذلك المركز بعيد ، او متعب جداً فهناك ابدأ ميل معاكس . بل

تصوّر مصاعب تأنيث بيت من البيوت ، وما هي الامور التي يتطلبها (والغريب ان المحبين الحقيقيين يتغلبون دائماً على مثل هذه العقبات ويشقون لانفسهم طريقاً في حين يحتمي المترددون دائماً وراء امثال هذه الصعاب ولذا يحجمون عن الاقدام واعطاء القرار) . فاذا فحص المرء حالتهم فحفاً دقيقاً ، ادرك وجود ارادة معاكسة فعالة من السهل تحليلها . ذلك لان مثل هذا الرجل ، وهو طفل في جوهره ، فهو لا يزال يعتمد على والده وعائلته واخوته واخواته . وهو لا يستطيع ان يغادر السقف الذي يظلل ابوه . ذلك لان هذا الشعور بمساعدة والده له يدخل الى قلبه سروراً . ولما كان لا يزال طفلاً فهو ايضا يسر لاهتمام والده به . وبتعذيب اخواته له وبقتال اخوته اياه . فهو لا يستطيع ان يعيش في جو غير جو والديه ، وهذا ما تطلبه ارادته المعاكسة ، في حين ان ارادته الشاعرة تلح عليه ان يحرر نفسه من اقربائه لكي يصبح مستقلاً . وليس حبه سوى محاولة منه للوصول الى هذا الخلاص . ولهذا يسرح في عالم من الاوهام يبعد به كثيراً ، فيسافر مع امرأته الى امريكا ، إذ يريد ان تفصل بينه وبين عائلته البحار الواسعة . او يتخيّل بيتاً متقناً كاملاً لا يسمح فيه لاي واحد من عائلته بزيارته فيه ، حينئذ تتداخل ارادته المعاكسة مرة ثانية فتقلل من قيمة عروسه وتجد فيها عيوباً . وتتداخل غرائز تعدد الزوجات ، فتحاول لعبتها الخطرة . هل يربط نفسه بامرأة واحدة مهماً جميع النساء الباقيات ؟ هكذا تتأرجح ميوله اماماً وخلفاً وتكون منه في النتيجة رجلاً ضعيف الارادة .

ان ما مر هو مثل على ضعف الارادة التي نشأت عن ظروف خاصة . على ان هناك في الوقت الحاضر نوعا من التربية ينتج ضعفا في الارادة كما يرى بوضوح . فهناك الوالدان اللذان يجهلان بان تربية الارادة والشخصية المستقلة بل الاستقلال بكل معانيه، تمثل اهم عمل من اعمال التربية . إذ نراهم يطبعون دائما ارادتهم على الطفل ويحاولون ان يكبحوا جماحه، فيملون عليه كل طريق من طرق الحياة . وهناك اطفال يصعب كسر مناوأتهم فيظهرون ارادتهم ويحكمون البيت جميعه بالحيل او المرض . ومثل هؤلاء الاطفال المتناوئين هم في الحقيقة النتائج الاصطناعية لهذه التربية . وهكذا ينشأون طغاة صغاراً في بيوتهم . ان الفكرة المغلوطة بان الطفل يجب ان يدلّل في اول سنة من سي حياته ، وان الواحد منا يجب ان يدعن له وان تربيته يجب ان لا يفكر فيها ، وان لا تستعمل الشدة الى ان يذهب الطفل الى المدرسة كل هذه تؤول الى عواقب وخيمة . ان الطفل الذي فسد ولم يبق امل في اصلاحه ، والذي تعود ان يفعل ما يريد في كل شيء ، لا يلبث ان يجد نفسه بعد حين اعزل امام قوة لا يفهمها ، فيلجأ الى المرض او (الشقاوة) كسلاح يظهر فيه مناوآته وانتقامه ، بل ثورته العلنية بما يقوم به من الاعمال ، فاذا غلب على امره ، وقهر بالشدة والقوة فقد تقهر وتذل ارادته ايضا . ولذا يجب ان يربى الاطفال على مبادئ المحبة وعن طريقها ، ولكن يجب ان يشعروا دائماً بانهم ليسوا اسياداً .

ويتطلع كثير من الآباء الى ابنائهم ويرجون ان نحقق آمالهم فيهم بل اغراضهم ومثلهم العليا وينظرون الى طفلهم كفرد سينجح

بالقيام باتمام رغباتهم . فالاطفال اذن انما يكونون على حق عندما
ينفذون جميع رغبات آبائهم .

مثل هؤلاء الاطفال يعجزون عن الاستماع الى صوت ارادتهم
ثم يفقدون فيما بعد المقدرة على الوصول الى اي حكم او قرار . بل
يحتاجون ابدأ الى شخص آخر ليجد لهم ما يريدون عمله من الامور ،
وليريهما ما يجب عليهم عمله ، وليقرر شؤونهم عنهم ، إذ يعجزون عن
الوصول الى حكم بانفسهم ، فقد اعتادوا تلقي اوامر والديهم . إنما
يقودهم الى هذا الخضوع للغير الشعور بالذنب والعقيدة الدينية المشوّهة
التي يسيئ الناس فهمها ، وما فيها من فكرة الشر الاصلية التي يكر في
التبشير بها ، تساعد كثيراً على ايجاد ضعفاء الارادة هؤلاء . وكلما كان
استبداد الوالدين اشد ، صعب نحمله . وتصبح نتيجة هذا الضغط الذي
لا يطاق الرغبة في التخلص من الظالمين .

واليك مثلاً آخر . ابن استبد به والده كثيراً وكانت تخطر بباله
بين آن وآخر هذه الفكرة : « إذا مات والدي اصبحت حراً ، وهكذا
اتصرف بالمال كما اشتهي واريد » . وبعد ذلك مات الوالد . ولكن
الولد ظل يعيش كما كان يعيش يوم كان والده حياً . فالتويخ المعاق ،
انما وُلد مظهر الاطاعة ولكنه جاء متأخراً .

وقوة الارادة ليست دائماً قوة حقيقية ولا ضعف الارادة ضعفاً
في الحقيقة . وكثير من ضعاف الارادة قاموا بجهد جبارة لاذلال
ارادتهم ، وهكذا اساءوا استعمالها ، فلم يبق لديهم بقية منها . اننا نرى غالباً
ان فقدان الارادة في احيان كثيرة اصعب من الارادة . وما يطلق

عليه (الارادة الحديدية) ليست عادة سوى قنـاع قوة يغطيها الضعف بمهارة .

ان سرّ النجاح ان يريد الانسان ما يستطيع القيام به ، وان يستطيع عمل ما تمليه عليه ارادته . وان اعظم هدف في الحياة ان نعرف ارادتنا ، وان نظهرها امام ارادة العالم المعاكسة حوالينا ، وان نجعلها قابلة للتكيف في نار شهواتنا . وان نلطفها بالمعرفة التي تنزل علينا برداً وسلاماً وهكذا نستخدمها مرة ثانية كسلاح — بل كمحارب في هذه الحياة .

ان الطريق الذي يجب على ضعيف الارادة ان يسلكه هو معرفة الذات ، إذ هو الذي يؤدي به الى معرفة مملكة الارادة الصحيحة ، واول خطوة نحو الشفاء ، هي في تتبع مصدر آلام اولئك الناس .

وسنجد ان جميع ضعاف الارادة لم يتنازلوا باطناً عن اغراضهم السرية ، فيجب عليهم بادى الامر ان يفهموا ما لا يجرؤون على ارادته كي يستطيعوا ان يريدوا ما يمكن بل ما يتوجب عليهم عمله .



الفصل الرابع عشر

عيوب (الهينوتزم) التنويم المغناطيسي

اتنا نتعلم من نظرة الى واجهة بائع الكتب مرتبة ترتيباً متقناً لجذب انتباه الناس ، اكثر من درسنا المتواصل لحاجات النوع الانساني وضعفه . قل لي اي كتب تباع فاقول لك ما هو النقص في اولئك الذين يشترون تلك الكتب . وانك لتجد دائماً بجانب الكتب الاعتيادية عن الصحة واطالة العمر ، كتباً تبين كيف تجدد القوى الخائرة ، وكيف تنقلب الارادة الضعيفة الى ارادة قوية . والحقيقة ان ضعف الارادة ، امر يشكو منه الناس شكاوى مرة هذه الايام . وقد مر علينا وقت طويل حتى تمكنا من ان نكتشف بأن المرض العصبي - (النفرزة) ، هو ايضاً مرض من امراض الارادة . فالعصبيون (النفاريز) هم فاقدو الارادة . وانما ينشأ شعورهم بالضعف والمذلة (الصغار) من هذه الناحية . يذهبون الى الطبيب شاكين باكين لضعف ارادتهم وقد تصل حالتهم احياناً الى درجة مضحكة . وهناك من العصبيين (النفاريز) من لا يستطيع ان يبدأ اي عمل مهما كان نوعه ، ذلك لانهم لا يستطيعون اثارة قوة ارادتهم . هذا النوع من المرض المحزن يعرف (بالابوليا) اي فقدان الارادة . واليك هذا المثال ، شابة عمرها ٢٤ سنة ، تشكو فقدان الارادة ولا

تستطيع ان تنهض من فراشها في الصباح لانها عاجزة عن ان تجمع المقدار الكافي من قوة الارادة الضرورية لغسل وجهها وارتداء ملابسها . في حين نحتاج عند المساء الى ساعات وساعات لتعود الى فراشها . وإذا ارادت ان تصل الى حكم هام غير اعتيادي لتنفيذه، مثلت مأساة صغرى، واخيراً قررت عائلتها ان يفحصها اختصاصي بالامراض العصبية . وتوافق هي على ذلك كل الموافقة ولكنها تترك يوماً بعد آخر فلا تستطيع ان تحرك نفسها لتخطو خطوة هي سهلة واضحة بالنسبة الى غيرها من الناس الاسوياء ، ولنبحث الآن في سبب هذا الضعف الخفيف في ارادتها . كانت قد ارسلت الى مصح لشكواها من انحراف عصبي بسيط . وكانت هذه الشكوى العصبية نتيجة اختيار غير موفق للزوج . وصدف ان تعرفت وهي في المصح بشخص تعلق قلبها به . فطلب اليها ان تترك زوجها واطفالها وتلحق به . لكنها لم تستطع ان تجمع ارادتها لتقوم بذلك . وهكذا ضحت بلذتها الشخصية في سبيل هناء اولادها الذين لم تشأ ان تسلبهم امهم واباهم وتخيلت بانها انتصرت على نفسها في هذا النزاع . وعادت الى البيت من المصح وقد تعافت في الظاهر ولم تمض بضعة شهور حتى عادت الابوليا تتسرب اليها ببطء . واخيراً تسلطت عليها وقهرتها فجعلتها عديمة النفع بالمرّة في جميع اعمال الحياة كبيرة كانت ام صغيرة .

وقد اظهرت ارادتها المعاكسة قوة خارقة، في مقاومة هذا الضعف في ارادتها ، وكان ذلك ضروريا لكي تستطيع تحمل التجربة التي فتنها . وهكذا انقسمت ارادتها بين باعثن قوين يعملان فيها، احدهما

يدفعها نحو الحرية ، وأرضاء شهواتها المكبوتة وما هنالك من وعود
عن هناء لم تعرفه ، والآخر يضرب على النغم الممل اي القيام بواجبات
الزوجة والامومة .

ويمكننا ان نصف العصبي (النفروز) بانه ذلك الشخص الذي
تتحكم فيه ارادات مختلفة ، فالباعث من جهة وعامل المنع وضبط
النفس من جهة اخرى يتنازعان تنازعا عنيفا فيه فلا تبقى لديه قوة
كافية لمقارعة الحياة . ويتساوى الناس في الاصل من حيث كمية قواهم
الارادية . انما السبب الذي من اجله يظهر احدهم قويا نشيطا والآخر
ضعيف الارادة خائر العزم ، يرجع الى ان احدهم استجمع قواه
كافة ، وطبقها على اعماله في حين انفق الآخر هذه القوى في النزاع
الداخلي فيه .

وإذا اعتبرنا قوانا جيشاً من الجنود قلنا انه يتوجب على العصبي
(النفروز) ان يقاتل اعداءه الداخليين وان يدافع عن نفسه ضد
اخصام وققواله على (الحياد) في حين ان الصحيح المعافى في امكانه
ان يستغني عن جميع جنوده فيوجههم الى مهاجمة العدو الخارجي .
فحالة التشتيت في الوقت الحاضر هي السبب في وجود كثير من الناس
المشتتين ، الذين يتقلبون صعوداً ونزولاً في رغباتهم من جراء تقلبات
ارادتهم من جهة ومن ارادتهم المعاكسة من جهة اخرى .

ولعل كل اختصاصي في العصب قد راجعه بعض ضعاف الارادة
من الناس طالبين اليه ان يجهزهم « بارادة جديدة » واكثر هؤلاء
يرغب في الحصول على ارادة جديدة عن طريق التنويم المغناطيسي .

وعلى الطبيب ان يتسلط عليهم ليتمكنوا من جمع قواهم بمقدار كافٍ ليقدروا على السير نحو هدفهم . والمبالغة في اهمية التنويم قد شاعت كثيراً عند الناس فتجد في كل مكان منومين اتخذوا التنويم صناعة دون اية معرفة طبية بسيطة، او دون فهم للشكاوي العصبية ، فيحاولون ان يهاجموا ارادة شخص آخر ، وهي ميكانيكية مركبة غير بسيطة ، ويتصورون ان في امكانهم ان يغيروا ما في الناس بمجرد كلمة يتلفظون بها . ارجو ان لا يساء فهمي ، فانا لا انكر حصول نتائج من جراء التنويم . ولكن هذه النتائج لا تكون في اية حالة من الاحوال دائمة، ويتبع هذا الاختلاط شفاء سطحي لا يدوم طويلا . وقد يشفى العصبي (النفروز) في بعض الاحيان بالتنويم إذا كان يملك حقيقة ارادة للشفاء . ولكن في مثل هذه قد يشفيه مستهو او طبيب حنون ، او مداواة بالماء او بالاعشاب او حج الى كعبة ما . فقد كان المريض مستعداً للشفاء وانما كان في حاجة الى انتقال عذر ليشفى . ولقد شاهدنا مثل هذا كثيراً في الحرب ، ورأيت رجالا اصابهم الفالج واخرين فقدوا النطق او ارتجحت اطرافهم ، شفوا بعد معالجات مغناطيسية ، ولكن الاختبار دلنا على انهم عادوا مرضى عند اول باعث او محرك ، وهذا ما حدث مع الذين تداووا بطريقة (بطارية فردي) الفعالة فأعادتهم الصدمات الكهربائية واولجاعها مرة ثانية الى ساحة القتال .

والعصبيون (النفاريز) اناس تعساء لا يستطيعون ان يكتبوا نصراً لانفسهم في نزاعهم النفسي ، فمثل هذا التداوي السطحي انما

يؤجل مشكلتهم مدة من الزمن . فالشفاء الكامل هو التخلص من
« ارادة المرض ، ومن تنازع الرغبات ، وينتج عن هذا شخصاً يتفق
مع ذاته .

ومن السهل ان نفهم ان التنويم يساعد البعض في بعض الاوقات
على الشفاء فيدلهم على الدرجات الاولى الى ان يتمكن الرجل من
الاخذ بيد نفسه ولكن لا يكون هذا إلا نادراً . في مثل هذه الحالات
يفيد التقنيع البسيط والاستهواء او اي نوع اخر من التداوي كما يفيد
التنويم إذا (تمكنت ارادة الصحة) سراً من تمهيد الطريق لهذا التحول
العجيب . ولكن كيف يستطيع التنويم ان يساعد الصبية التي تشكو
مرض الابوليا ؟ نحاول ذلك وتبتدىء (بالارادة) فتظهر صحيحة ما
دام إلهام المنوم ينفخ في ارادتها مظهراً جديداً من مظاهر الحياة .
ولكن إذا تركت وشأنها تعود فتنغمس في ذاتها مرة ثانية او قد يحدث
تغيير في اغراضها . ويظهر ضعف الارادة هذا كأنه تلاشي وزال ،
ولكنها تقع في حالة مضطربة من حالات العقل ، وقد تفلج هستيرياً .

فالتنويم ليس هو المداواة البريئة التي يمثلها المنومون والذين
يقومون به في العلن لتسلية الناس ، بل هو هجوم قوي جبار على
ميكانيكية (النفس) وقد لا تظهر نتائج هذه المداخللة القوية إلا بعد
فترة من الزمن حين نزول الحالات من الذاكرة ولا يبقى ثمة ما يربط
بين الانزعاج الجديد وفكرة المداواة بالتنويم .

وليس غرضنا هنا ان نبحث في طبيعة التنويم لانه موضوع
واسع ، وهناك الشيء الكثير من عنصر التمثيل فيما يقوم به المنومون ،

والمؤمنون بالاكثر . فان المرضى الذين ناموا نوماً عميقاً في الحالة المغناطيسية اكدوا بانهم انما كانوا في حالة (سبات) ولكنهم كانوا شاعرين بجميع ما كان يدور حولهم وهم على تلك الحالة . وكل منوم فيه عامل من عوامل السحر، فهو يتخيل بان في امكانه الاتيان بنتائج عجبية بل خارقة عن طريق ارادته . ولكن العجب الوحيد هو ما يستطيع الصبر ان يقوم به بالاساليب الطبيعية . لم اكن يوماً ما لاجسر على الاعتقاد بان المرأة التي تتألم من ضعف في ارادتها تشفى شفاء دائماً بالتنويم او بمجرد تلقي امر مني . وقد دلنا اختبار الحرب مرة بعد اخرى على ان في الامكان ان نشفي التفاريز (العصيين) باتباع جميع الطرق الممكنة وحتى غير الممكنة في بعض الاحيان .

فالبيكم شفوا عن طريق مصل عديم الضرر حضر لهم في مهرجان خاص بعد معالجة واحدة ، والعرج تعلوا لتحريك اطرافهم باستعمال مخدر وقد اوهموا بان عملية قد اجريت لهم وهم تحت تأثير المادة المخدرة . واصبح رجال كانوا يشكون من رعشة مخيفة ، هادئين ، عندما احضر لهم نوع من الآلات قيل لهم انها من (وسائل الشفاء الدائمة) والحقت بها بعض تحضيرات تناسب المقام . كما ان التنويم اثر في في شفاء موقت لكثير من الجنود المصابين ، وبالرغم من ذلك فليس لي إلا ان احذر الناس من استعمال هذه الوسيلة للشفاء دون تبصر او تعقل ، فاني اعرف رجالين ومهندسين وممرجين وطلابا ، يحبون ان يصطنعوا التنويم امام معارفهم بل يفتخرون بانهم يعالجون كل نوع من انواع الامراض العصبية بواسطة . اما ما هو الضرر

الذي ينجم عن ذلك في حالات خاصة ، فامر يكشفه الاختصاصيون
بالاعصاب . ويجب ان لا يسمح الفرد لنفسه في اية حالة من الحالات
ان ينوم شخصاً آخر من اجل المزاج او التجربة .

ان المنوم يملك سلطة تامة على فريسته بعد بضع جلسات تنويمية
فاذا لم يسأ استعمال هذه السلطة ، واستعملت لنفع المنوم كانت العلاقة
بين العبد والطاغية حينئذ مقبولة بعض الشيء . ولكن هل مثل هذه
العلاقة تعد تربية او تدريباً لائقاً لقوة الارادة ؟

جاء في نسخة من جريدة (Neurologisches Zentralblatt) بحث
قيم عن التنويم . فقد داوى الدكتور اوسكار كونستام وهو اختصاصي
الماني بالامراض العصبية ، مريضة في مصح تشكو الماً عصبياً ، بالتنويم ،
ولما كانت تحت تأثير التنويم سألت عن الحوادث التي سببت آلامها ،
وكانت في الظاهر قد نسيت هذه الحوادث المؤلمة (او كبتها) .

هذا الاسلوب في التنويم استعمله في البدء فرويد ولكنه عاد فتركه
لانه وجد ان عمل الطبيب هو مران على فضيلة الصدق . وعلى
المريض ان يتعلم كيف يدرك بوضوح افكاره السرية وان يتحلى
بالجرأة للاعتراف بها علناً . ثم سقطت السيدة مريضة في بيتها وكتبت
الى الدكتور كتاباً ملؤه اليأس والقنوط ، فكانت تشكو الماً فظيماً في
رأسها وعادت لا تستطيع عملاً فاجابها الدكتور كونستام :

« عزيزتي السيدة اخذت كتابك الآن ، وها انا اسرع
فاجيب عليه . عند تسلمك كتابي هذا المساء اذهبي الى فراشك الساعة
التاسعة ونامي بهدوء ولا تحلي حتى الساعة السادسة صباحاً ، عندئذ

تدركين سبب انزعاجك ، وتشفين حالا . وفي اليوم الذي تشفين فيه اكتب لي بالتفصيل عما جرى لك . ثم مزقي الكتاب ارباً وانسي محتوياته . .
الامضاء : الدكتور ك .

وهكذا صار ، فانها لما اخذت الكتاب نامت حالا وكتبت الى الطبيب تخبره عن حادثة جرت لها منذ سنوات بعيدة لم تكن ذات بال وشني ألم رأسها .

ألا يقرب هذا من السحر ؟ ولكن هل الاعتماد على المنوم شرط في شفاء ضعف الارادة ؟ وهل من الضروري كل الضروري ان نستعمل تدجيل التنويم بالمراسلة لكي نحصل على هذه النتيجة ؟

إذن كيف نعلل حدوث ذلك ؟ ذلك بان السيدة كانت تنتظر كتابا من منومها . وجماعة فرويد يقولون — ولهم بعض الحق — ان المنوم يقع حالا في حب المنوم . والحب هو ارادة الخضوع ، ولهذا يصبح دستور التنويم هكذا . الآن يمكنك ان تفعل بي ما تريد . .
اليس من الممكن ان هذه السيدة كانت تشعر بألم في رأسها لانها كانت تفكر كثيراً في الدكتور ك . مع انها لا تعترف بان مثل هذه الفكرة يمكن ان تنفذ الى افكارها السرية ؟ وهكذا فان معجزة ذلك الكتاب امكن حلها حلاً طبيعياً ، فالطبيب يفكر فيك ويحييك حالا ، ويرفع يده ليحييك ويهنم بك ، انت إذن غير منسية — أدخل الى قلبه السرور واثبت له عظم قوته . —

ماذا يستطيع ان يفعله لك حتى عن بعد — ؟

اي طبيب لا يستطيع ان يذكر حوادث كثيرة تشبه هذا الشفاء
العجيب دون ان ينسب ذلك الى قوة تنويمية بعيدة الاثر؟ فهناك
دائماً اناس يتشوقون الى ان يكونوا تحت سلطة غيرهم . ولكن لكي
يكون المرء صحيحاً يجب ان يكون متـكـلاً على نفسه ، والتنويم يدفع
الارادة المريضة جانباً مدة من الزمن فقط . والارادة الضعيفة تُخفي
وراء ارادة غيرها ، وتظهر مرة ثانية عندما يتم الحكم تمثيل دوره .

ولذا اقول لجميع المرضى الذين يتشوقون الى التنويم : يجب عليكم
ان تنالوا الشفاء عن طريق فهمكم في حالة الصحو، لا عن طريق ارادة
غيركم عندما تكونون نياماً . اخلوا انفسكم من عالم الاحلام الوهمي
واسعوا وراء حياة حقيقية وذلك بقيامكم بواجبكم . اوجدوا لكم
امكانيات جديدة للسرور والبهجة والهناء وذلك بان تكونوا لكم عالماً
واسعاً من الفن ، والفكر والتلذذ بالطبيعة . لا تتكلموا دائماً عن
آلامكم — التزموا الصمت . .



الفصل الخامس عشر

الرسالة التاريخية الكبرى

ان الايمان بعظمة المرء عقيدة متأصلة في كل فرد من بني آدم .
ففي الشباب يرفع هذا الايمان افكارهم الى ما بعد العصر الذي يعيشون
فيه ويشير الى مثل عليا . ولكن فورة الشباب لا تلبث ان تهمد ،
فيكيف المرء نفسه مستسلماً للحقائق الجافة في الحياة الواقعية .

والمرضى العصبي يعرض جميع الجهود البشرية في اشكال مبالغ
فيها جداً ، فاما ان تكون مشوهة فتصبح كاريكاتورية او ضئيلة الى
درجة مضحكة . وليس لطموحه من حد . وكل حادثة (في المرض
العصبي) هي في اساسها طموح لم يرض . فما هو المنفذ الذي يحده
هذا الطموح ؟ ان الاعترافات الناقصة لا نخفي هذه الحالة . فجميع
(العصبيين) يؤمنون بان لهم (رسالتهم التاريخية الكبرى) . فهم
يثورون لانهم لا يريدون ان يمثلوا دوراً عادياً في هذه الحياة ، ولا
يريدون ان تكون حياتهم مجرد رحلة حاج الى كعبته . فهم يصارعون
الالهة بل يريدون ان يكونوا آلهة هم انفسهم ، ويتحولون لانفسهم
قوى ما فوق الطبيعة الانسانية ، ويرغبون في القيادة والهدم والبناء ،
بل يريدون ان يحولوا العالم ، او يكونوا قواداً او نوابغ او انبياء
او مخترعين ، او اصحاب عشرات الملايين — بل كل ما لا يجعلهم

ينغمسون كغيرهم في الحياة العادية، فيتشوقون لكي يمتازوا على الجماعات، ويسيطرون عجباً وتبهاً كمن ينظر الى اكاليل الغار بين النجوم ويكرهون كل ما هو دنيوي فيبخسون قيمة الاهداف العادية للاشخاص الفانين تدفعهم الرغبة الى تخليد اسمائهم .

هذا الايمان (بالرسالة التاريخية العظمى) — مثل نابليون، جوته الخ — يؤدي الى الجنون اذا لم يتوازن بشعور معاكس ، — هو الشعور بالضعف والمذلة . فالعصبي يشعر بأنه احط من احط الناس وان كل من سواه اقوى منه واشد تصميمًا واجمل وجهًا واذكى عقلاً ، ويظل يقابل نفسه ببيئته . فالشعور بالضعف يضخم اهمية بيئته ويقلل من قيمة شخصيته (ذاته) .

هاتان القوتان تتجاوزان العقل الشكاك للعصبي في جهات مختلفة ، فتراه احياناً يملكه شعور بالعظمة واخرى بعدم الاهمية ، وتراه احياناً ملهماً واخرى قد ركه الشيطان ، ويسكره احياناً جنون العظمة ، فاذا به ذليل منكسر مقهور من جراء شعوره بالضعف والمذلة .

وبموجب توزيع هذين العاملين — (جنون العظمة ، والحس بالضعف) يتكون خلق المرء وتكشف شخصيته . وتتستر واحدة او اكثر من هذه الخصال عن العالم وعن الشخص نفسه احياناً كثيرة .

ولما كان تحقيق اغراض طموحه لا يجد مجالاً في العالم الحقيقي ، لذا يعيش العصبي في عالم من الخيال والالوهام ، ويصبح في هذا العالم الثاني الذي يبنيه الحاكم بأمره او القائد الاعلى ، بل الساحر الذي

يستطيع ان يقوم بالعجائب في تغيير مجرى الامور والحقائق .
وكلما ازداد تعمقه في عالم الوهم ، عجز عن تكيف نفسه على الحقيقة
الواقعية الجافة .

وقد ادرك (جوته) هذه الحقيقة وتخللها في بطله (فاوست)
وهو رجل متفوق في الذكاء كان ينسب الى نفسه قوى هي فوق طاقة
الانسان العادي ، فيعين لنفسه (الفرد الشرير) لكي يوسع حدود
الانسانية . وهو مؤمن برسائله التاريخية العظمى ، وعبثا يحاول
(مفتغوليس) ان يثنيه عن عزمه بتوجيه نحو الشهوات الدنيوية
ولكن الحب لا يؤلف سوى حادثة من الحوادث في حياته المكتظة .
واوضح من هذا الطبيعة الخيالية للرجل الشمالي التي مثلها (إبسن)
في (بير جنت) فهذا هو العصبي النموذجي (النفروز) الذي يعتقد
في رسالته التاريخية العظمى ، فهو يريد ان يكون امبراطوراً وشاعراً
ومكتشفاً يحلم انه يغير الصحراء الى بحر ، وهو يهرب من اخطار
الحب الحقيقي الذي يحجز له البيت وما فيه من راحة وهناء ويقضي على
احلامه بعظمته الدنيوية ، ويظل (Solveig سولفيج) هو المثل الاعلى
الطاهر الذي (يعز الوصول اليه) ضرورياً لخيالاته حتى لا يهدم
الحب بامتلاكه .

وقد اشار (إبسن) الى هذه الفكرة في (كوميديا الحب) التي
اثارت سخطاً عظيماً في بلاده النرويج فاضطر الى ان يهجرها . فكتب
(بير جنت) وهو بعيد عن بلاده في روما .

ولكن اذا اخذنا (بير جنت) ككلم شاعر ، او تصریح صريح بل

مثال — للشهوات القاهرة الفياضة — اتضح لنا حينئذ مغزى هذه المأساة .

كان (إيسن) ابن رجل غني بذر امواله وترك عائلته في فقر كما يتضح من حالة ابوي (بيرجنت) فقد اضطرا الى ان يهربا من جراء غضب ابناء وطنهما ، ولكن القصيدة تشبه نبوة مدهشة لهذا الشاعر ، الذي كان يتألم ويئن حينئذ للرجوع الى وطنه وهو في بلاد الغرب . فليس (سولفيج) سوى رمز لنروج ، اي بلاده وموطنه . ومع انها كانت بعيدة عنه ، فان اناشيدها لم تزل ترن في اذنيه ، ولا يكون الرجل نيباً في بلاده فيصبح (بيرجنت) في الجنوب نيباً ، ويكرم ويعترف بمزاياه في بلاد الغرب (١) حتى اذا ما تعب وتاب رجع الى بلاده ، فتستقبله كما تستقبل الام الصابرة طويلاً ، لفراق ولدها استقبالا ملؤه اللطف والمحبة والتسامح ، وهكذا يصبح (سولفيج) في الفصل الاخير امأ فيقول : « كان الولد يجلس في حضن امه وكانا يلعبان طول النهار ، وكان الولد يسكن الى صدر امه طول النهار ، فليبارك الله سروري هذا ، فقد كان الولد رابضاً قرب قلبي طول النهار ، اما الآن فقد تعب ، . بهذه الطريقة فقط ندرك كيف يصبح المحبوب امأ . لقد كانت بلاد النروج بلاده ، بل حبه ، وقد انتقى جميع رواياته من موطنه وكانت رغباته منصبة لكي يصبح شهيراً معروفاً في بلاده فيكتسب بذلك حب مواطنيه .

(١) ليس لني كرامة في وطنه .

قد نضطر الى ان نثبت ارضاء رغبات الشاعر ارضاء تاماً في بطله (بيير جنت) — وسأشير هنا الى نقطة جديدة وهي مشهد امام ابي الهول — فقد احب فيما بعد ان يصوغ لقرائه ألغازاً فيبرز (كأبي الهول الشمالي) .

إن الحنين الى (الرسالة التاريخية العظمى) قد تحقق بافتخار في الشاعر إبسن ، فان حلم (بيير جنت) قد تحقق ، واستقبلته بلاد آباهه واجداده كالطفل التائب بذراعين مفتوحتين واحلته المكان الاول في قلبها . ومن امثال (بيير جنت) ألوف مؤلفه بل ملايين ولكن واحداً منهم فقط يتحقق حلمه ، فاكثروهم يزجون في بوتقة الصهر ليعاد صوغهم من جديد .

لقد أبنت عن هذه الفكرة في كتابي (الشعر والمرض العصبي) كما يأتي ولكي ينشأ نابغة ، مبتكر ، هدام ، بناء ، يجب ان يقرب ألوف الضحايا التي لا فائدة منها وان يطرح جانباً عدد لا يعد من العصيين (النفاريز) قبل ان تظهر الامثولة الكاملة



الفصل السادس عشر

اختيار المهنة

إذا دققنا في الدوافع التي تدفع الناس على اختلافهم لاختيار مهنتهم وجدنا ، وقد دهشنا ان اكثر الناس اختاروا مهنتهم صدقة او ما يشبه ذلك . فاذا حملنا اولئك الذين اختاروا عملهم الذي لهم ميل اليه وجدنا دائماً علاقة بين اختيار مهنتهم والحب .

ونجد دائماً ان للذين اتخذوا مهنتهم صدقة ، مهنة ثانية ، تمثل العمل الذي يدعواهم اليه اختيارهم الحقيقي .

ومن مساوىء هذا العصر ، اننا نندر ان نلتذ لذة حقيقية بالمهنة التي اخترناها . ونقصد بالمهنة هنا ذلك العمل الذي نشعر اننا خلقنا له ، وهو العمل الوحيد الذي يبعث فينا سروراً ويسترعي انتباهنا كله .

ان الدور الذي يلعبه الحب في اختيار مهنة الشخص هو جزء من الدور الذي يلعبه الحب في الحياة . ويمكن تشبيهه بشجرة تخترق جذورها اعماق الحياة المادية والغريزية ، ومن جهة اخرى تتطاول قبتها للوصول الى السماء . وكل خلية في هذه الشجرة تشبع من السائل المتصاعد من جذور الشجرة الى تاجها اي من الارض الى اعلاها . وكل واحد منا هو تلك الشجرة — مرتبط بما هو دنيوي وغريزي .

ومن الحقائق المقررة قديماً ان كل فن من الفنون هو حب اعيد

قاله في اشكال مختلفة . فالفنان يوجد اعماله كما يوجد اطفاله وقسم من حبه هذا يفقده طول حياته . وقد ادرك (رتشرد واكنز) هذه الحقيقة فقال ان الفن يبتدىء حيث تنتهي الحياة ، ولما لم يبق شيء في الحياة فظهر رغباتنا عن طريق الفن . والفنان المتألم انما يحرق نفسه من الغريزة الجنسية الشديدة القوى عن طريق الفن ، فان جميع القوى التي افرغها واكنز (في ترستان) كانت خسارة (لميلدا وزندك) . فقد استطاع ان يحرق نفسه بواسطة (ترستان) كما حرر (جوته) نفسه بواسطة (فارنر) من عبودية الحب ليحصل على حرية الخالق المبتدع .

والفلاسفة يشربون من منبع واحد . فقد اكد فرويد في درسه اللذيذ عن ليونردي فينتشي ، ان كل شوق الى البحث والاستقراء مصدره الشوق الوحشي الاولي في الطفل لحل لغز نشأة الاطفال .

ومن المحقق انك تجد في اكثر الانظمة الفلسفية تعقيداً ، هو نواة حب مخفية يمكن متابعتها والتأكد من انها مصدر النظام جميعه . ولكل منا ميول محدودة لا يستطيع ان يعلمها . فالرغبات البديعية مثلاً تترك تنوعاً عجيباً لاذواق الافراد . فقد تجد احدهم يرغب في العيون ، وآخر في الايدي ، وآخر في الاقدام الصغيرة ، وآخر انما ينظر وهم بالانف ، وآخر بصورة الوجه ، وسادس بالمشية وهكذا . وقد دلنا الاختبار على ان مثل الجمال الاعلى انما يحدد في علاقته بمنطقة حب خاصة ، قد نجد ان اكثر اعضاء الجسد التي تجذبنا اليها هي التي تملك اعظم درجة من الحساسية . (والفيتيشية) في الرجل الصحيح — (اي الانجذاب

الجزئي) انما منشؤه في هذا ، ولا يسلم احد منه بالمرة . هذا الانجذاب الجزئي هو الذي يحدد اذواق الناس في مسائل الحب .

وقوة هذا الانجذاب يعبر عنها لا ارادياً في اختيار المهنة . فذلك قد يضطرب « المسحور بالقدم » فرحاً عند رؤيته قدماً صغيرة البست نعلا جميلة ، كما وقع (لترتيف دي لا برتون) فيختار لنفسه صناعة لها صلة بالاقدام ، فاما ان يصبح صانع احذية او اختصاصياً في الاقدام ، او في التجبير . وكذلك (المسحور باليد) قد يختار صناعة قص الاظافر قبل كل شيء . والرسام قد تدفعه رغبته في الايدي الى ان يقتصر على رسم الايدي . ونرى آخر يستفيد من رغبته بان يدرس قراءة الايدي ليحكم على الخلق منها . وآخر قد يهتم بعمل اليد الفيزيولوجي . وآخر قد يصبح صانع قفازات ، وقد اعترف لي احد هؤلاء ان رؤية يد جميلة تبعث فيه سروراً زائداً ، لا يفوقه سرور إلا ان يسمح له بتقبيلها والشاعر قد يتغنى بمدح الايدي في قصائد ، وقد يكرس روايته لايده جميلة لسيدة — كما فعل جبرائيل دونزويو — الذي خصص (الجيو كندا) لايدي (الينورديوز) الجميلة .

وهناك من تتمركز رغبته الحسية في الشعر . فالحلاقون الذين يبرعون في التفنن بمودة الشعر ، ويكتسبون شهرة في صناعتهم ، يظهرون رغبة حبية في الشعر . اعرف حلاقاً كان عندما يقص شعراً جميلاً ، يعرف حس وخزي في اصابعه ، وكان يتضاعف احياناً الى انفعال شديد من التهييج .

وهذه الرغبة الحبية هي عامل فاصل بين الاطباء في اختيار الفرع

الخاص الذي يتخصصون به ، إلا اذا كانت الصدقة هي السبب الوحيد. فالذي يعجب بالانوف الجميلة يصبح اختصاصياً في الانوف، والمتهالك في حب النساء يصبح طبيباً مولداً ، ويصعد بواعثه الجنسية المعكوسة في ان يصبح جراحاً نسائياً يخلص حياة النساء ، (والمسحور بالاذن) يختار الاذن اختصاصاً له . يجري كل هذا لاشعورياً بالطبع، وبدون ان يتمكن من تعليل تلك الرغبة الشديدة لنفسه (او بدون الحاجة لان يفعل ذلك) .

اما ان الجراح قد حوّل ضعفه الى قوته الخاصة فانما ثبت هنا كلمات (هيل) حيث قال (ان فضائلنا هي نغول (١) ضرورنا وآثامنا). وقد يبين تحليل ذهن الشخص لنا سبب اختيار المهنة، قال لي احد الاختصاصيين في (اشعة X) انه قبل اكتشاف اشعة رونتجن اشغل نفسه في التفكير في امكان اختراق اجزاء الجسد الداخلية وان ينفذ الى داخلية الناس المجولين لديه بطريقة ببيكولوجية. فقد قال عرفت (اشعة X) التي تخترق الروح قبل ان اعرف ادوات رونتجن .

قد تتوسع في البحث اكثر ولكن ما قلناه كفاية للقارىء ليدرك منه مبلغ قوة (الحب) فهو الذي يقرر بقاءنا وهو الذي يخطط لنا طريقنا ونوع معيشتنا، وهو ابدأ موجود في اما كن نشك قليلا في وجوده فيها . فيتخذ ألف شكل ، فاذا هربنا منه ، فهو اقرب اليانما يكون عندما نفتش عنه .

(١) الابناء غير الشرعيين .

الفصل السابع عشر

أسرار النفس

ان الناس يسعون دائماً وراء السرور . فالسرور كالرؤيا الجميلة الجذابة الخلابه تظل ماثلة امام المرء . فيحسب انه التقطها وامسك بتلابيبها ولكنها لا تلبث ان تزول وتتلاشى . ثم تظهر على غير انتظار في احلامه ، وكأنها جلبت معها ارضاء لرغباته السرية . ولكن الرغبة اذا ارضيت في الحقيقة فقدت قوتها السحرية في منحها السرور ذلك لان الامتلاك يقلل من قيمة الشيء المملوك في حين يبدو ما تعجز عن الوصول اليه وكأنه هو الوحيد الذي يستحق منا السعي والجهد .

لكن السرور يتطلب مرافقة شخص آخر . شخص يفهمنا ويستطيع ان يرضي فينا التعطش للحب والصدقة ، شخص يستطيع ان يكون لنا معلماً بل هادياً ومستشاراً . وتمكن نحن بدورنا ان نعلمه ونقوده وننصحه . وكل منا يطمح الى ان يجد انساناً آخر يستطيع ان يقوده الى القمة التي يفجز عن الوصول اليها وحده .

ان حاجتنا الضرورية الى العطف والتعبير الذاتي بل الى وعاء نستطيع ان نسكب فيه جميع افراحنا وازراحنا تنمو مع السنين . وكثيرون يمرضون لانهم لم يجدوا هذه الصلة الضرورية لذواتهم .

ولهذا يعرضون عن العالم وقد استولى عليهم اليأس فيندبون حظهم ، ويتألمون ويقفون جانباً بعيدين عن مجرى الحياة ، المتدفق ، وجميع هؤلاء العصيين هم اناس لم ترض رغباتهم وقد اتصفوا بعجز مذل ، فيعجزون عن الوصول الى ما يطمحون اليه فينقطع بعضهم عن العالم انقطاعاً تاماً ويأخذون في الانغماس في حياة غريبة من الاحلام تجعلهم لا يصلحون للحياة الواقعية .

ويظهر انهم (يتركزون حول ذاتهم) ويتجهون بكليتهم اتجاهاً باطنياً ، اي يتراجعون ليقبعوا بين جدران انفسهم — كأنهم قد انكمشوا حقاً في جلودهم . وقد تصل هذه الحالة بهم الى درجة يصبحون معها وقد فقدوا كل قيمة لهم في الحياة ، فيخسرون طريق الحقيقة . فلا يبقى لديهم اي خيط من خيوط المعرفة ليدلهم على كيفية الخروج من (دهليز قلبهم) ليعود بهم الى العالم الخارجي مرة ثانية .

هذه الحالة دعاها طبيب العصب السويسري يونج الشهير « بالانقلاب الباطني » وهي عرض من اعراض الاضطراب العقلي . فالجنون هو هدم الجسر الموصل بيننا وبين العالم الخارجي بل هو اعتكاف وانفصال ارادي عن العالم .

ومع هذا فهناك طريق آخر . قد يتراجع الانسان الى داخلية ذاته فيعود الى الظهور شخصاً متضاعف القوى يخوض معارك الحياة . لان في النفس قوى خارقة اكثرها غير مستثمر تنتظر كلمة سحرية لتحوّل الى اعمال . وكل منا يحمل في داخلته نبعاً لا ينضب من الشباب الازلي يستطيع بواسطته ان يبرز نشيطاً بل مخلوقاً خلقاً

جديداً ليعالج افراحه او اراحه من جديد . وجميع المعلمين العظام إنما تعلموا فناً واحداً فقط ألا وهو (التمرکز حول ذاتيتهم) . وجميع الفلاسفة المشهورين والانبياء والشعراء ، إنما ينتزعون الهامهم من اعماق آبار نفوسهم . وهم الذين يعلموننا ان ندلي بدلونا فنملأه من اعماق البئر بكنوز لا تثنى .

وقد بين هربرت سلبير في كتابه الفريد (مشاكل التصوف والرمزية) ان فن الكيمياء النيل اي (فن تصيد الذهب) إنما هو حقيقة ، سعي وراء ابريز المعرفة والكيميائي الحقيقي ، هو الذي يطرح (ذاته) في بوتقة النفس لكي يتخلص من الادران التي علقت به ، ولكي يتطهر فيعود ذهباً خالصاً ، فن كان غير راض عن نفسه استطاع ان يغير نفسه الى مخلوق جديد ، وليس عليه إلا ان ينغمس في ذاتيته وان يعرف نفسه ويقهرها وينازع نقائصه ويقوي صفاته الجيدة ويكبح جماح رذائله ويقوي فضائله . ويجب عليه ان لا يهرب من ذاته بل عليه ان يعرف نفسه وان يحصر انتباهه باطنياً دون ان يضل عن طريقه ليتمكن من العودة الى الحياة الحقيقية .

ومع هذا فما الذي نراه عندما نشاهد الحياة ؟ نرى الانسانية تضيق حياتها هرباً من ذاتيتها . هكذا نبذل حياتنا جميعها في عوامل التشتيت ، وفي اعمال لا هدف لها بدلا من اكتناز الحكمة وحسن ادارة قوانا الداخلية .

وليس لدى الرجل المثقف ثقافة حديثة في سعيه الى التفوق الذهني متسع لنفسه بل ليس لديه وقت للتفكير في ذاته ولا لاهدافه

او لفشله او لمكذراته او لآماله او لاتنصاراته . ذلك بان الرجل الحديث قد فقد ادراكه مقدار حاجته الى العزلة . فالخوف من العزلة هذا عند العصيين قد يصل الى درجة مضحكة ، يتمثل فيها هذا المظهر الاجتماعي بشكل هزلي . فامانا السيدة التي يجب ان تحاط بما لا يقل عن اربعة من الاصدقاء او الاقرباء لكي تحول دون حدوث نوبة عصبية هستيرية شديدة . وامانا الرجل الذي يرتب عمله في الاسبوع بحيث يقضي كل ليلة في ناد مختلف ويقضي ايام الاحد طبعاً في صحبة كثير من الناس وهكذا فان الخوف من العزلة حتى عند الناس الذين لا يعبأون بغيرهم ولا يكسبون عطف غيرهم بجمعهم معاً — مخافة ان يظلوا وحيدين ، والدافع الوحيد لهذا السلوك الاجتماعي بين الاغراب هو عدم احتمالهم الوحدة . اما الرجل الذي يتركز حول ذاته فقد يتضايق من غيره لا من نفسه ، وله ابدأ اسئلة يسألها ويحجب عليها ومشاكل يحلها ، فيزور هيكل تذكاراته واختباراتاه ويقيس الامور ويقدرها ويراجع حساباته وينتقد ويدافع وينتق ويهمل ، بل قد يخرب المواد الثافهة ويضع أسساً لمشاريع جديدة . وإذا صح (على رأي ابسن) بان الشاعر هو الذي يستطيع (ان يبنى حكماً على ذاته) ، حينئذ يكون الرجل المنقلب باطنياً شاعراً ، إذ تصبح الحياة في نظره عملاً فنيا يسعى الى تحقيقه ، ويحاول ان يهذب قواه ويتوصل الى ارقى ما يمكن الوصول اليه فيملاً حياته عملاً وجمالاً . على ان ادراك الاخطاء والذنوب وافكار الحق الانانية الشريرة والرغبة في موت الآخرين الخ . . . كل هذه اساسية في طبيعة (الانقلاب الباطني)

وجميع ما تبقى من الانسان الوحشي الاول يصهر في بوتقة النفس
ويعاد سبكه كما قال الشاعر جزءاً من تلك القوة (التي نعجز عن
فهمها والتي تريد ابدأ الشر وينتج ابدأ عنها الخير) . وجميع المحسنين
الآن يملكون في خلق الانسانية من جديد بعد الحرب . فان موجة
الكره الهائلة يتبعها تيار قوي من الحب ، فنحن نتكلم عن نزع السلاح
والتحكيم والصلح الدائم بين الامم . فهل مثل هذا الخلق الجديد ممكن
اجتماعياً اذا لم يحدث في الفرد اولاً ؟ وهل كانت هذه الحرب التي هي
اشد الحروب وحشية ممكنة لو لم تكن هناك هوة من الكره والحقد
والتعطش الى الدماء متمركزة في قلوب الجميع ولكنها مغشاة بغشاء
مزيف من الثقافة . وان هذا المرض العقلي للحرب الذي شاهدنا نموه
ورأينا ما تبعه من فظاعة وقسوة ، قد اثر على احط العقول واسماها
لا يمكن اعتباره إلا بانه انفجار اولي لهذه القوى المقهورة . ولا يمكن
للانسانية ان تخلق من جديد إلا إذا خلقت كل وحدة فيها من جديد .
وعلى كل منا ان ينظر متأملاً في كل ناحية من نواحي الحرب ويفحص
نفسه ويسعى ليدرك كيف انجرف مع هذا التيار العام بل كيف
اصبح جزءاً منه . ولا يسعنا ان نبعث فينا القوى التي تغير مجرى
الحياة والعاطفة إلا عن طريق الحزن . والآن وقد جررنا جميعاً كأس
الآلام وشاهدنا عظمة الحرب وغثينا منها وخبرنا جميع مشكلاتها
وارتباكاتها بل جميع عناصرها المدهشة المضطربة وغير الاجتماعية
والاجرامية والوحشية والمنحطة — اصبحنا اهلاً لعصر جديد
وانتكوين فكرة جديدة عن الحياة . فيجب والحالة هذه ان نطرح جميع
افكارنا وانفعالاتنا في بوتقة النفس ونعيد سبكها من جديد .

ارجع الى رواية (Peer Gynt) وانظر كيف يعيد صانع
الازرار الشيخ سكب المخلوقات المشوهة بواسطة ملعقته المذوبة .
وصانع الازرار هذا هو (المعرفة) بعينها فكل من يشعر بان ازرار
سترته القديمة قد بليت وجب عليه ان يسكبها من جديد . ونحن نتبين
في الشيخ صانع الازرار رمز الموت والحياة ، وإذن يجب دائماً ان
يموت (آدم القديم) قبل ان يقوم الجديد من بين الرماد .

يقول (سلبرر) : ان الرموز تجهز كل فرد منا بمغزى هو
حقيقي في نظره وهي تحدث كل واحد منا حديثاً مختلفاً لا نهاية له ،
وكل منا يسعى بادىء ذي بدء الى الوصول الى هدفه الخاص في
العالم المجهول . فليس المهم المثل الاعلى الذي نهدف اليه ولكن المهم
اننا نسعى الى الوصول اليه فالسعي والطلب هما أس التقدم والنمو ، .
وفي محاولة خلق الذاتية الجديدة تظهر معجزة الخلق من جديد ، وفي
الكفاح الابدي الازلي للتنوير والتطهير ، وإنما يفنى ويتلاشى ذلك
الذي كف عن القتال والنزاع ولا تعرف النفس حزناً لا يمكن
صهره في بوتقتها .



الفصل الثامن عشر

الماضي والحاضر

قالت الزوجة الصبية وقد اقتربت من زوجها الشاعر (بحب عليك ان تروي لنا خرافة البرنس ومخدع كنز حبها) وطلب الطبيب والرسام من الشاعر ما طلبته الصبية ، غير ان زوجة الطبيب قالت (لا اريد ان تقص علينا خرافة بل اريد قصة واقعية) . فاجابها الشاعر مبتسماً : يا ليتنا نعرف ما هي الخرافات وما هي الحقائق ، ؟ فان كل خرافة تخفي وراءها حقيقة من الحقائق ، وسأعتبر خرافتي عرضاً رمزياً لمشكلة تشغلني الآن . فأنا اكتب رواية بطلها رجل لا يستطيع ان ينسى ماضي محبوبته ، وقد اصبح من الواضح عندي ان المرء لا يحب شخصاً آخر إلا اذا احب خطيئاته في البدء واعترف بماضيه وقبل به . واذا استطعنا ان تمادى فنحب هذا الماضي كنا قد اجتزنا اعظم اختبار للحب . . . وتجهّم وجه الصبية وقالت : ليست هذه خرافة بل هي من محاضراتك الفلسفية الدائمة التي نزهقني وتضجرني . اني احب البساطة او فقال الرسّام : الخرافة . دعنا بالله عليك نشرع في قصتنا الخرافية ، فاسمعوا . كان هناك اميرة تزوجت من امير وكان يحبها حباً جنونياً ويفار عليها من الجميع حتى من ماضيها . وللأميرات عادة ، مخدع لكنوز الماضي ، وكان لاميرتنا هذه مثل هذا المخدع ، وكانت تتردد سرّاً اليه ، وكان الامير يباغتها وهي خارجة

منه وقد لمعت عيناها ونوردت خدودها وكانت عيونها اشد لمعانا الآن مما كانت حين كان يضمها الى قلبه . ولما كان ماضيها هذا يؤلمه منعها من زيارة ذلك المخدع . وهكذا اخذت الاميرة مفتاحاً ذهبياً واقفلت امام زوجها المخدع الصغير ورمت (مفتاح الماضي) في بحر النسيان .

« ومنذ ذلك اليوم صارت الاميرة حزينة جداً واخذت خدودها الموردة الحمراء تصفر وابتساماتها تذبل وصارت الدموع تنهمر على خديها البيضاء ولم تكن هي لتعرف سبب ذلك . ولم يكن الامير ولا الاميرة ليدركا ان منعها من دخول مخدع الماضي هو سبب جميع ما كانت تقاسيه من ألم . واخيراً لم تعد تشعر بأية لذة عندما يقبلها حبيبها . وارسل وراء اشهر الاطباء الى القصر فأشار احدثهم عليهما ان يسافرا الى قصر ملك يعرف (بقصر الحب) إذ لم يكن الزوجان الملوكيان قد احبا بعضهما مدة من الزمن ، كما احبا بعضهما من اليوم الاول ، ولكن القصر بأكمله لم يكن يسود فيه غير الحب السعيد . وكان هناك ايضا مذبج قد كرس لآلهة الماضي .

« ولما اقترب الزوجان التعسان من ذلك القصر استقبلهما ملك باركه الحب ، وحي الامير واستمع الى قصته ولما جاء الى مسألة اقبال مخدع الماضي لمعت عيناها وقال : « اسمع ايها الامير ان هذا هو سبب تعاستك ، دعني انصحك فأنا ايضا كنت اغار من مخدع كنز زوجتي ، ولكنني كنت احبها حباً خالصاً بحيث كنت ارى بعينها واشعر بيدها وأعي بقلبيها وكنت ارافقها دائماً الى مخدع كنز ذكراها فأصبحت كنوزها كنوزي ، وكنت ارافقها الى مخدعي واتفقنا ان

بجمع بين مخدعي كزينا . ونحن الآن ندخل الى هذا المخدع في ايام اعياد الحياة ونشعر في كل زيارة بتجدد قوانا واعادة نشاطنا وازدياد حبنا كل مرة ، وقد كانت ذكرياتنا تربطنا معا ارتباطا قريبا بدلا من تفريقنا كما هو الحال مع كثير من الحمقى ، لهذا اصدرت هذا القانون في قصري وهو : يسمح بالزواج لأولئك الذين يقبلون ان يوحدوا بين مخادع كنوزهم ، اما انا فقد رميت مفتاحك ذلك المفتاح الذهبي الثمين الى البحر فعليك الآن ان تهج الى حورية الحلم لتعيد اليك المفتاح من بحر النسيان .

« هذه هي القصة الخرافية واضيف الى ذلك انهما ذهبا فأحضرا المفتاح فشفيت الاميرة شفاء تاما وعاد حبها للامير وللزمن الحاضر . » فقال الطبيب « واذا لم يدر كهما الموت فسيعيشان بهناء الى الابد ، » اعتقد ان هناك دائما اناسا لا يستطيعون ان يتخلصوا من ماضيهم والواحد منا يرفض ان يرى ذلك ويطرح المفتاح الذهبي جانبا ولكنه يختلف عن الاميرة ، بانه لا يوجد من يأمره بذلك . وهناك من يحوم ابدآ حول ماضيه ولا يستطيع ان يتخلص منه ، بل ينغمس فيه وينسى الحاضر ولا يتنہأ للمستقبل . فاعترضته امرأة الطبيب قائلة « انك ذو وجهة واحدة ، ألا يجب علينا ان نحب ماضينا ؟ ألا يجب ان نرافقنا ذكريات الماضي الجميلة طول حياتنا ككنوز لا يجوز ان نخطمها . فاجابها الطبيب « طبعآ ، ولكن « يجب ان لا نسمح بان يصبح ماضينا في نظرنا اهم من حاضرنآ . هناك ثلاثة انواع من الناس ، رجل المستقبل الذي يعيش ابدآ في مستقبله يبني قصورا في الهواء

ورجل الماضي الذي يحلم بفردوس الماضي والذي يفكر دائماً في مصائبه الماضية متذكراً متأقفاً ، ثم يعود ويبدل كل ذلك في ذهنه ، ورجل الحاضر الذي يعيش على واجبات يومه ، هؤلاء هم الأصحاء حقيقة ، هؤلاء هم المخترعون ، رجال الأعمال ، ذلك بأنه يجب ان نعلو فوق ماضينا لكي نكون اصحاء .

« كيف ينطبق هذا على خرافة الشاعر؟ ألم تصبح الاميرة مريضة لانها لم يسمح لها برؤية ماضيها . . فعدم الرغبة في الرؤية ليست كالتغلب على العقبات . إذ لا بد في فترة من حياتنا ان نتفاهم مع ماضينا ولكن هذا امر آخر يختلف كثيراً عن انشغالنا بصورة مستمرة بأمور ماضينا .

وكان الرسام ينصت بانتباه للقول فاشترك في البحث حينئذ قائلاً « ان من مصائب المرء ان يشغل باله في ماضيه ويصدق هذا على الامة كما يصدق على الافراد . والرجل الذي يشتغل اشتغالا تاما بحاضره يتغلب على ماضيه بسهولة عظيمة ، وهذا هو السبيل الاكيد الوحيد . ولكن مما هو اشد حزنا ان يشعر المرء بحاضره كأنه ماضيه فتصبح كل حادثة يمر بها المرء كأنها هباء منثور لا ظل لها من الواقع . وقد اختبرت مثل ذلك مرة . ومن حسن حظي ان كان ذلك مرة واحدة ، ذلك عندما كنت احب ، إذ كنت دائماً اشعر بأن ذلك الحب لا يدوم وانه لا شك زائل ، على حين ان المحبين إجمالاً يشعرون بأن حبهم الحاضر ابدى ازلي ، فهم يحاربون الفكرة القائلة بأن ذلك الشعور المجيد هو زائل فان . قال الشاعر « والآن اتم خراقتي ، لقد كان

يعيش في تلك المملكة امير اختبر جميع كنوز الحاضر وملازماتها
لمخدع كنوز الماضي هذا

فسمع الحاضرون صرخة من الشارع تقول : « الطبعة الاخيرة ،
فأصغى الجميع واستطاعوا ان يسمعوا جملة « النصر العظيم » بوضوح
بئس . فلم يكن هناك ما يدعو الى احجامهم . فقد انتصر الحاضر
«المجيد» فانتظروا بلهف لتحضر الخادمة لهم انباء آخر ساعة ، وما اعجل
ما كانت هذه الاخبار جزءاً من الماضي الموهوم .



الفصل التاسع عشر

كلمات موجزة

— الافكار فترات استراحة (انتراكت) بين فصول العواطف .
 — الفكر الجيد اجل قيمة من الرواية السيئة التي تنشرها الجرائد .
 — اصدق اختبار للقراءة ، ان تتمكن من تحويل محتويات الكتاب الروحية الى فكر واحد .

— الكتاب الذي يخلق «جوا» محدوداً يميل الى كبت الافكار ،
 ويقتصر عمله على التلاعب بالعواطف . « فالجو » كالبرق الالفتي
 والفكر المريح كالبرق الشوكي . ومن المؤسف ان ما يسمع ان هو في
 الغالب رعد الكلمات الجوفاء .

— الجرائد هي ظلال الحوادث .

— يطول الظل كلما قاربت الشمس من المغيب :

فالرجال الصغار — بناء على الخطأ في الادراك الذي يتألف
 في هذا المجال البصري — ينشرون ظلالاً كبيرة .

— ستكون الحرب مسئولة عن خلق اضطرابات عقلية أكثر
 من اضطرابات جسدية .

— المزاح سلاح التسلط .

— النساء الجيلات يتألمن من اثر الاعباء التي يفرضها عليهن

جماهن ولكن النساء والمسرورات الفرحات، يتألمن أكثر، من جرّاء
الاعباء التي يفرضها السرور عليهن .

— الهيبو كندريا (١) هي مرآة مشوهة للرجل الباطني .

— الامراض العصبية إنما هي قصاص يفرضه علينا القاضي الباطني .

— للمريض العصبي مبدأ واحد وهو (إكره نفسك كما تكره جارك)

— الصحة الجيدة معناها الانتصار على الماضي .

— ان اصدق الحقائق واعظمها شأنًا ، يلفظها اناس يتخيلون

بأنهم يكذبون .

— الكذبة هي (فكة—فراطة) المجاملة . والصدق ذهب الخشونة .

— ما أكثر ما نضطر الى مقايضة ذهبنا (بفراطة) قليلة . الديون

الزهيدة نسدها بالكذب واما الباهظة فالصدق .

— الشخص العادي يعبر عن الصدق بالامثال ، اما العظم فيعتمد

على السكوت .

— ان الذي لا يحترم الشؤون العادية في الحياة لا يستحق ان

يختبر الشؤون العظيمة .

— المنكت الحقيقي يكتشف العظمة في الاشياء الصغيرة ، والصغار

في الاشياء الكبيرة .

— التوافه تظهر عادة عجز الناس . لا يتهم الاطباء عبثًا ، بعجزهم

عن مداواة، حتى البرد (الرشح) .

(١) الهيبو كندريا هي حالة مرضية يمرضها قلق زائد على الصحة واذلال النفس .

— انا نكتشف ما هو مهم واساسي من نظرنا الى التأثير على ما هو غير مهم وغير اساسي .

— حيثما يسود الضحك هناك تستطيع ان تمكث . ان الذي فقد فن الضحك يستطيع ان يصل الى ابعد نهاية .

— ليس هناك من صفة يحسدك الناس عليها اكثر من الضحك . راقب اناسا يشاهدون احدهم يضحك دون ان يعرفوا سبب ضحكه تراهم قلقين مستغربين يتعمدون الاذى بل قد يغضبون . ان هناك حقا غير مكتوب هو الحق لمشاركة الآخرين في الضحك .

-- انه لا صعب عليك ان تجعل احدهم يضحك من ان تجعله يبكي مما يدل على مقدار تألم الانسانية اجمالا .

— كثيرون من الناس يرغبون في التجاوز عن النكات المبتذلة وفي هذا دليل على وجود بعض الطبائع الخالية من الحسد . ما الاثم الرجل الذي يحتفظ بنكتة جيدة لا يشرك بها غيره . على ان الذي يوزع نكاته بالفرق لا يخلو من بعض الانانية . فهو يتمثل نفسه في النكتة ، ومن اجل هذا يرغب في ان يكون له فضل اكتشافها .

— النكتة نوع من الوحشية المقنعة بقناع من الظرف .

— ان الذي يحول الضحكة على نفسه ، انما يرغب في ان ينزع سلاح غيره الوحشي ، بسلاحه .

— ان من الناس من يستطيع ان تعهد اليهم بكل شيء ما عدا نفسه .

— اذا احببت فقد وجدت الآهك . لجميع الناس بحسب هذا القول يفتشون عن الله .

— كان القدماء اشرف منا في عقيدتهم لان آلهتهم كانت من الحيوانات .

— الحب يضم جميع انواع البشر الحيوان والاله .

— مسرة الحياة اجمل انواع التقوى .

— ان الذي يعتقد بالمعجزات هو في حالة يأس . اعظم المعجزات ليست سوى مظهر من مظاهر الطبيعة .

— مناجاة الارواح فكرة مضحكة عن الدين . فالوسطاء يقومون باعمال صيانية لانها تمثل المعتقدات الصيانية في بني الانسان .

— يا ليتنا نستطيع الوصول الى الدور الذي نتمكن فيه من مخاطبة ارواحنا ؟ ولو ظهرت هذه الارواح لادرکنا ونحن نرئجف انها تتکلم بلغة لا نفهمها .

— ان الذي يتخيل بانه يعرف نفسه ، لا يعرفها في الحقيقة . ان اول مرتبة في معرفة الذات هي الاعتراف بعدم فائدة التأمل الباطني .

— ان اعظم فن عند الرجل المثقف ان لا يكون فنانا .

— النساء يفتخرن بأنهن الهمن ما اتجه الفنانون ، غير ان هذه هي حصتهن في الرجولة .

— تخفي الزوجات الطائعات سلطتهن تحت غشاء من الخضوع .
فهنالك رجال لا يمكن التسلط عليهم الا بالاطاعة .

— « المودة » هي انتقام المرأة من العلم .

— البيت في نظر المرأة التي تتقن تدبير شؤون بيتها ، ائمن من عائلتها .

— أخش من الفضيلة التي تشعر بوجود نفسها . ان اعظم الفواجع في الحياة الزوجية نجدها في فصل الرواية الاخير حيث تمثل الفضيلة دور المفسد .

— يقول الذين لا يعرفون احلامهم « كان يجب ان لا احلم بذلك الامر » غير اننا نحلم في الليل بكل شيء لا يجوز بل لا يستطيع ان يطرأ على اذهانتنا في النهار .

— يسألني الناس كثيراً من « اين وجدت الوقت لهذا العمل ؟ » ذلك لانني اجد وقتاً لكل شيء حتى لان انفق الوقت جزافاً .

— اعتذر ابني مرة عن عمل شيء بحجة انه لم يكن في وسعه ان يجد من وقته متسعاً لنصف ساعة فقلت له « ان هذا سرّ نجاحي فأنا لم تنقصني نصف الساعة تلك مرة واحدة » .

— ليس هناك شيء يعرف بالصدف او الاتفاق ، فالصدف انما هي اتجاهات الى الواجب والطموح .

— قل لي من تتجنب اخبرك من انت . يجب ان يعرف الواحد منا كيف يتجنب الناس الثقلاء ، ويبتعد الى الظرفاء من الناس . ان الذي لا يستطيع ان يكون عديم المبالاة بغيره لا يعرف قدر نفسه .

— يولد الواحد منا ليكون طائشاً ، ولكي يكون فاضلاً يجب ان يموت .

— ان طبيعة المرأة الحقّة ، ظاهرة في القبة التي ترتديها لا الكتاب الذي تقرأه .

— ان طبيعة الرجل الباطنية تفضحها بعض الحقائق التافهة ، ففي مناظر الحياة العظيمة لا يمكن للمرء مهما كان شارد الذهن ان ينسى وضعه المقرر . اعرف قصة تضع بموجبها ام قطعة من الجبن امام خطباء ابنتها . فان قطع الخطيب قطعة صغيرة منها فهو بخيل ، ومثله لا ينفق على زوجته عن سعة ، وان قطعها باسراف فهو مبذر ، لقد كانت تلك الام عالمة بسلوكية حقا . واخشى ان يكون الشخص الذي فهم مغزى القصة بأجمعها ، هو الذي تردد في كيفية قطع الجبن هل يسرف ام يقتصد .

— الاطفال هم (الاسمنت) الذي يربط بين حجرين ربطا ابديا ، لكن ألا يمنع هذا الاسمنت الحجران من الالتصاق التصاقا قريبا ؟ ألا تكون تلك المادة فاصلة بين الحجرين ؟

— نعيش مرة واحدة ولكننا نموت ألف مرة .

— ان هيكل الذاكرة يجب ان يزار نادراً اذا اردنا ان يظل مقدسا .

— ان الذي يألف هذا الهيكل يفقد ماضيه وحاضره ولا يبقى له بيت او هيكل .

— بعض الناس لا يسرون ابداً ، إلا إذا كانوا غير مسرورين .

— لا نبكي مصائب الغير وإنما نبكي مصائبنا .

— ان الرجال الذين تؤثر فيهم دموع زوجاتهم فيسمحون

لانفسهم بتغيير قرارهم كان يمكن ان يرضخوا بدون تلك الدموع . إنما يحتاجون الى حجة ليظهروا ضعفهم بمظهر الحنو وكرم الاخلاق .

- الهبات المسرفة تقضي على الصداقة .
- انه لا صعب علينا ان ننسى السرور من ان ننسى الحزن .
- يرى كثيرون في الصداقة وسيلة تعطيهم حق استثمار اصدقائهم .
- العزلة هي ام العظمة .
- ان الذي يريد ان يبرز على غيره يجب ان يمتنع عن قياس نفسه بالمقياس العادي .
- احمرار الوجه مشعل الشهوات الذي يضيء في سماء الحب المتكشف .
- الاعياد هي مجون المهتكين .
- الخجل في العادة، ليس سوى دعوة الى عدم الخجل .
- لا شيء يدعو الى الملل اكثر من محادثة يكون القصد منها تجنب الملل .
- كلنا شعبان عندما يضحى غيرنا بجلودهم .
- ان الذي يحترم الماضي الخالد كثيراً، لا يستحق الحاضر الزائل .
- كلما ازداد الرجل في تعلم فن التفكير نسي فن الشعور والانفعال .
- تتمثل مأساة الحياة بأجمعها احياناً في كلمة واحدة في حين يحتاج الى كلام كثير لاختفائها .
- الخصام معناه قتال من اجل شخصيتنا .
- القصاص هو محاولة تعديل ظلم بآخر .
- ان الناس الذين يسرفون في حياتهم العاطفية، يصبحون مرضى باعصابهم فيضطرون اخيراً الى اعلان افلاسهم النفسي .

- ان الذي لا يقوم بعمل احق واحد في حياته، هو نفسه احق حقا .
- اصعب المشاكل ان تمتلك شيئا ولا تتلف قيمته .
- المحبة معناها اكتشاف الانسان الآهه .
- ان نكون في حالة حب يعني اننا اكتشفنا الهنا .
- ان نحب معناه ان نجد تكملتنا في الانسان ، الاله الذي نزل من مرتبة الالهة الى مرتبة الانسان .
- إنما نفهم اولئك الذين نحب خطيئتهم .
- العظمة قد نرضينا لو لم تثر فينا الرغبة في شيء اعظم . المجهول هو دائما اعظم شيء .
- الخسارات الكبرى يتحملها المرء دائما اكثر من الصغرى .
- بين واحة الذكرى ، ونهر النسيان تمتد صحراء الجنون .
- الانتحار هو الشكل السلبي للايجابية في الحياة . المتشائمون لا ينتحرون ، إنما ينتحرون المتفائلون الذين يدركون عقم طموحهم فيقبضون حياتهم بانفسهم .
- الموسيقى عدوة الفكر اما العاطفة قوت المفكرة .
- تفقد الافكار قيمتها المخلصة عندما تلبس بالالفاظ .
- احسن الافكار تنساقط لاشعوريا امام ابواب الشعورية .



فهرس الكتاب

صفحة

٥	مقدمة .
٢٠	الفصل الأول : الانسان الباطني .
٢٨	الفصل الثاني : العمى الارادي .
٣٩	الفصل الثالث : الحسّاسون .
٤٧	الفصل الرابع : أقنعة الباعث الجنسي .
٦٣	الفصل الخامس : الجماع .
٧٠	الفصل السادس : سباق الشوارع .
٧٨	الفصل السابع : عذاب الاختيار .
٨٦	الفصل الثامن : الخوف من طيب الأسنان .
٩٣	الفصل التاسع : المتأخرون أبداً .
٩٩	الفصل العاشر : إرادة المرض .
١١٠	الفصل الحادي عشر : الارادة للقبح (نريد أن نقبح) .
١١٦	الفصل الثاني عشر : عالم الوم .
١٢٢	الفصل الثالث عشر : ضعاف الارادة .
١٢٨	الفصل الرابع عشر : عيوب الهيدنوتزم (التنويم المغناطيسي) .
١٣٧	الفصل الخامس عشر : الرسالة التاريخية الكبرى .
١٤٢	الفصل السادس عشر : اختيار المهنة .
١٤٦	الفصل السابع عشر : أسرار النفس .
١٥٢	الفصل الثامن عشر : الماضي والحاضر .
١٥٧	الفصل التاسع عشر : كلمات موجزة .